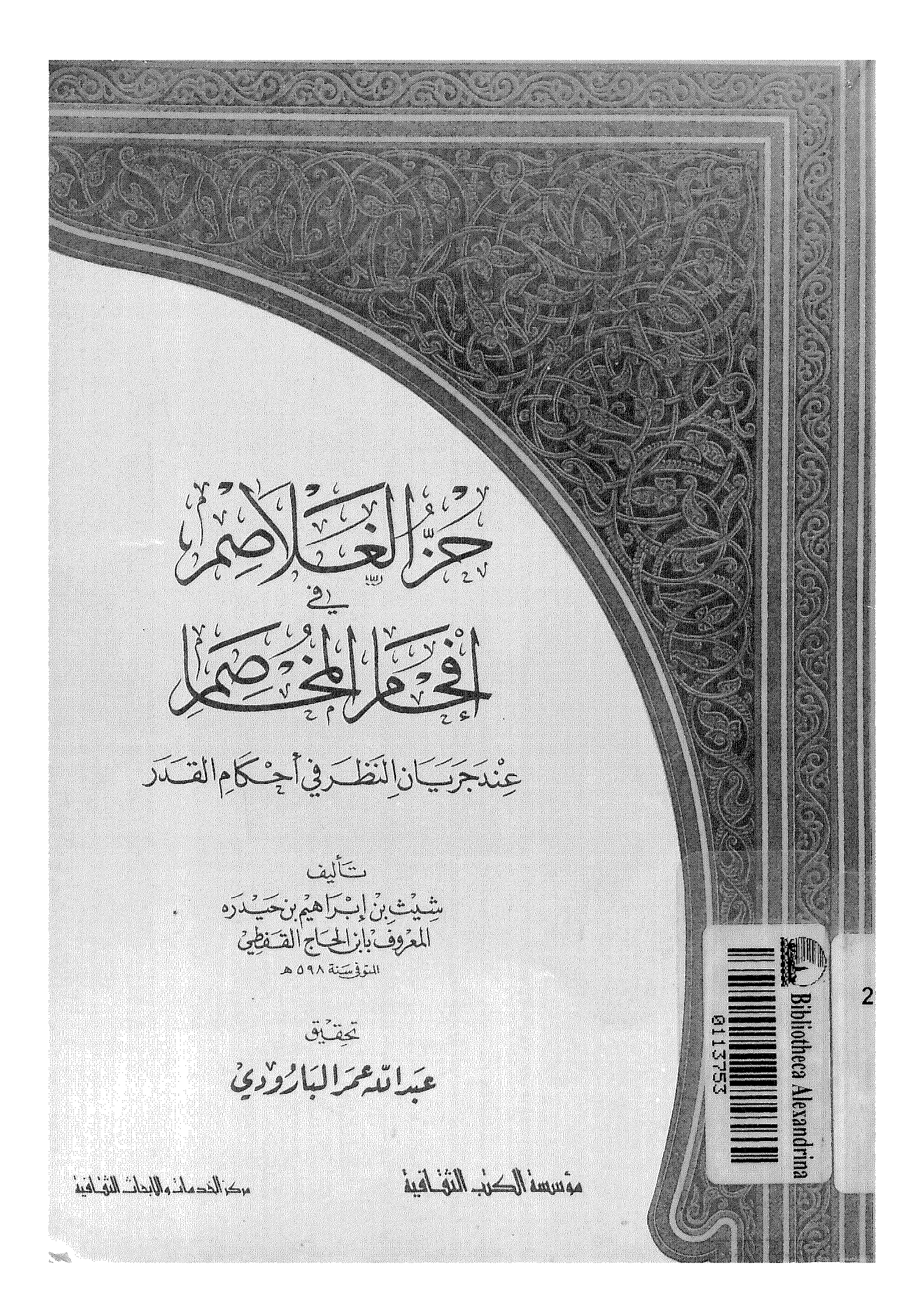
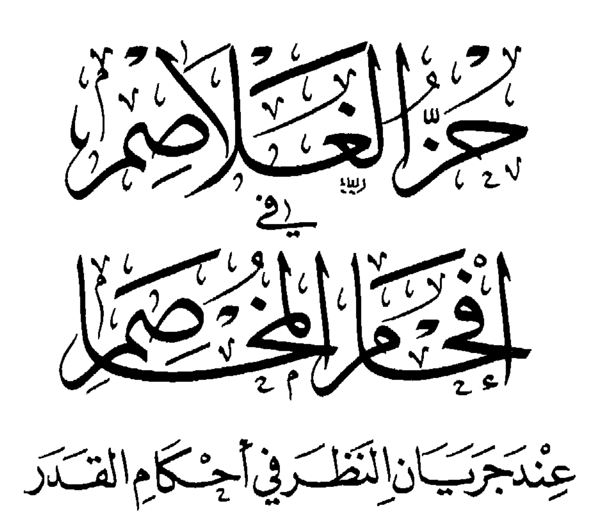

حز الغلاصم
في
إفحام المخاصم
عند جريان النظر في أحكام القدر
تأليف
شيث بن إبراهيم بن حيدره
المعروف بابن الحاج القفطي
المتوفى سنة ٥٩٨ هـ
تحقيق
عبدالله عمر البارودي
مؤسسة الكتب الثقافية
مركز الخدمات والأبحاث الثقافية
Bibliotheca Alexandrina
0113753


حز الغلاصم
في
إفحام المخاصم
عند جريان النظر في أحكام القدر


بسم الله الرحمن الرحيم



عند جريان النظر في أحكام القدر

تأليف

شيث بن إبراهيم بن حيدره
المعروف بابن الحاج القفطي
المتوفى سنة ٥٩٨ هـ

تحقيق

عبد الله عمر البارودي

مؤسسة الكتب الثقافية

مركز الخدمات والأبحاث الثقافية

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع

مؤسسة الكتب الثقافية و مركز الخدمات والأبحاث الثقافية

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



مؤسسة الكتب الثقافية
ص. ب. (٥١١٥) - ١١٤
هاتف ٣١٢٠١٧
برقياً: الكتبكو
بيروت - لبنان



مركز الخدمات والأبحاث الثقافية
ص. ب. (٥٠٨٣) - ١٤
هاتف ٣١٢٠١٧
بيروت - لبنان

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقائد الغُـرِّ المحجلين، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الذي بعثه الله رحمة وهدى للمؤمنين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين.

وبعد، فإن عقيدة الإسلام توافق العقل السليم الذي هو شاهد للشرع، الذي لا يأتي إلاَّ بمجوزات العقل. وكلمة الشهادة «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله» هي الكلمة التي يُـدخل بها في دين الإسلام لمن كان على غير الإسلام. ومعناها اجمالاً أنه لا معبود بحق إلا الله، الواحد الأحد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأنه يتصرف في ملكه كما يشاء، وأنه ليس كمثله شيء، وأن كل شيء دخل في الوجود بمشيئته تعالى وبتقديره وعلمه، وأنه أرسل سيدنا محمداً القرشي الهاشمي، وأنزل عليه كتاباً أحكمت آياته، وأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وصبر حتى صارت كلمة الله هي العليا.

ثم لما توفي النبي ﷺ، ارتد أناس في الأطراف، وامتنع أناس عن أداء الزكاة، حتى قام سيدنا أبو بكر بقمع هذه الفتن.

ثم وجد الفتّـانون في عهد الفتن مرتعاً خصباً لبذر الشر والفساد، فبدأوا يسعون جهدهم في تفريق كلمة المسلمين بشتى الوسائل، فكانت الخوارج، ونشأت المعتزلة وغير هؤلاء من الفرق وهكذا عمت البلية، وشملت المصيبة إلى أن بلغ عدد أصول الفرق وفروعها عدداً كبيراً، فتحقق كلام النبي ﷺ في افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة.

وقد كان للعلماء سعي مشكور في دفع الشبه، وإبطال التمويه والفساد فألفوا كتباً عديدة.

وإن الفقيه شيث بن إبراهيم بن حيدرة المعروف بابن الحاج أحد العلماء المؤلفين في هذا الشأن للدفاع عن الدين.

وسبب اختياري لهذا الكتاب أن الأستاذ كمال يوسف الحوت قد أخبرني أنه اطلع على هذا الكتاب في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة فأشاد به ومدح أسلوب المؤلف إذ أنه استخرج الآيات القرآنية للرد على المعتزلة، ولكن لم يتم له تصوير هذا الكتاب فقام بتسجيله، ثم عرضه على النسخة الأخرى التي تم الحصول عليها في مكتبة حلب فجزاه الله عنّا كل خير.

وقد ذكر الإمام الاسفرايني في كتابه التبصير في الدين ص / ٦٣: أن المعتزلة ينقسمون إلى عشرين فرقة فعدهم مع ذكر فضائحهم فمن شاء فليراجع.

وأخيراً فإنه يسرنا أن نخرج هذا الكتاب للقراء مع الملاحظة أنه يطبع لأول مرة والله سبحانه يوفقنا للخير، وأن ينفعنا بهذا العمل.

عبد الله البارودي

مدير

مركز الخدمات والأبحاث الثقافية

ترجمة المؤلف

قال ابن فرحون في الديباج المذهب: شيث بن ابراهيم بن محمد بن حيدره بن الحاج ضياء الدين أبو الحسن، كان فقيهاً فاضلاً نحوياً بارعاً، وله في الفقه تعاليق ومسائل، وله في النحو تصانيف، منها:

- المختصر.
- والمعتصر من المختصر.
- حز الغلاصم في إفحام المخاصم.
- وكتاب تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي.
- ولطائف السياسة في أحكام الرئاسة.
- وذكر السيوطي في بغية الوعاة كتاباً له: حسن العبارة. وقصيدة في اللغة(١).

وذكره النفطي في تاريخ النحاة وقال: كان فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً زاهداً، أجاز له أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب، وأبو الطاهر إسماعيل بن عوف، وأبو الحجاج يوسف بن علي القضاعي، وحدث عن أبي الطاهر السلفي، وكان حسن العبادة لم يره أحد ضاحكاً ولا هازلاً، وكان يسير في أفعاله وأقواله سيرة السلف الصالح، وكان

---

(١) قال السيوطي أن هذه القصيدة ذكرها في الطبقات الكبرى.

ملوك مصر يعظمونه ويرفعون ذكره على كثرة طعنه عليهم وعدم مبالاته بهم ونحل جسمه وكف بصره؛ ومن نظمه:

اجهد لنفسك إن الحرص متعبة   للقلب والجسم والإيمان يرفعه
فان رزقه مقسوم سترزقه   وكل خلق تراه ليس يدفعه
فإن شككت في أن الله يقسمه   فإن ذلك باب الكفر تقرعه

وله:

هي الدنيا إذا اكتملت   وطاب نعيمها قتلت
فلا تفرح بلذاتها   فباللذات قد شغلت
وكن منها على حذر   وخف منها إذا اعتدلت

مولده بقفط، قرية من قرى مصر، وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة عن ثمان وثمانين سنة.

(*) مصادر الترجمة:

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. للقاضي برهان الدين بن فرحون المالكي. ص ١٢٨ ـ ١٢٩.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ١/٤٥٤.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. لجلال الدين السيوطي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ٢/٦.

وصف النسخ الخطية

هناك نسختين خطيتين للكتاب، الأولى:

ـ نسخة كتبت بخط مشقٍ مستعجل متشابك، ذكر كاتبها أنه تم كتابتها عام /٦٨٣/ هـ ولم يصرح عن اسمه. وجعلت أوائل المسائل بالحمرة، ويشتمل الكتاب على قسمين وختمه المؤلف بفصل في ذم القدرية.

موجودة بالمكتبة العثمانية الرضائية، تحت رقم العقائد /٥٧٧ مج، وهذه النسخة كانت العمدة في تحقيق الكتاب.

ـ أما النسخة الثانية فموجودة بمكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة ولم نستطع الحصول على صورة عنها مما دفعنا إلى أن نعرض النسخة الأولى على نسخة عارف حكمت لمقارنتها.

وهذه النسخة مجهولة التاريخ والناسخ.

خطة التحقيق

ـ اعتمدنا في تحقيقنا كما ذكر على النسخة الأولى ثم قوبلت على النسخة الثانية.

ـ خرجنا الآيات القرآنية الواردة بالمخطوط بعزوها الى سورها وأرقام الآيات.

ـ خرجنا الأحاديث بعزوها الى رواتها.

ـ علقنا على بعض المسائل في التفسير.

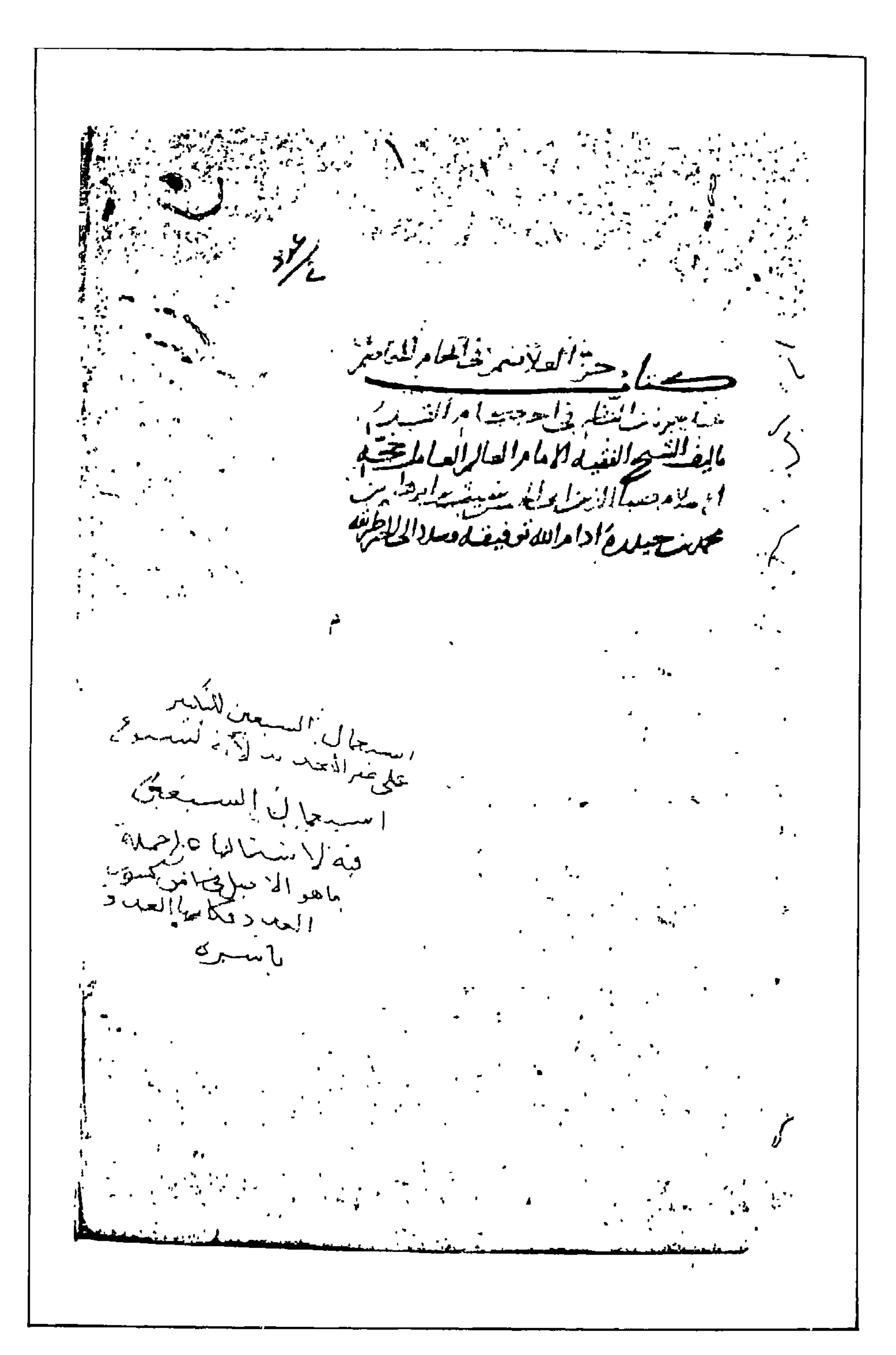
ـ شرحنا بعض المبهمات وبعض العبارات والمصطلحات.

ـ خرجنا تراجم بعض الرجال.

ـ صدّرنا الكتاب بترجمة عن المؤلف وعن حياته ومشايخه ومؤلفاته.

ـ وذيلنا الكتاب بفهرس موضوعي.

ـ وأخيراً ذكرنا المراجع المعتمدة في تحقيق الكتاب.

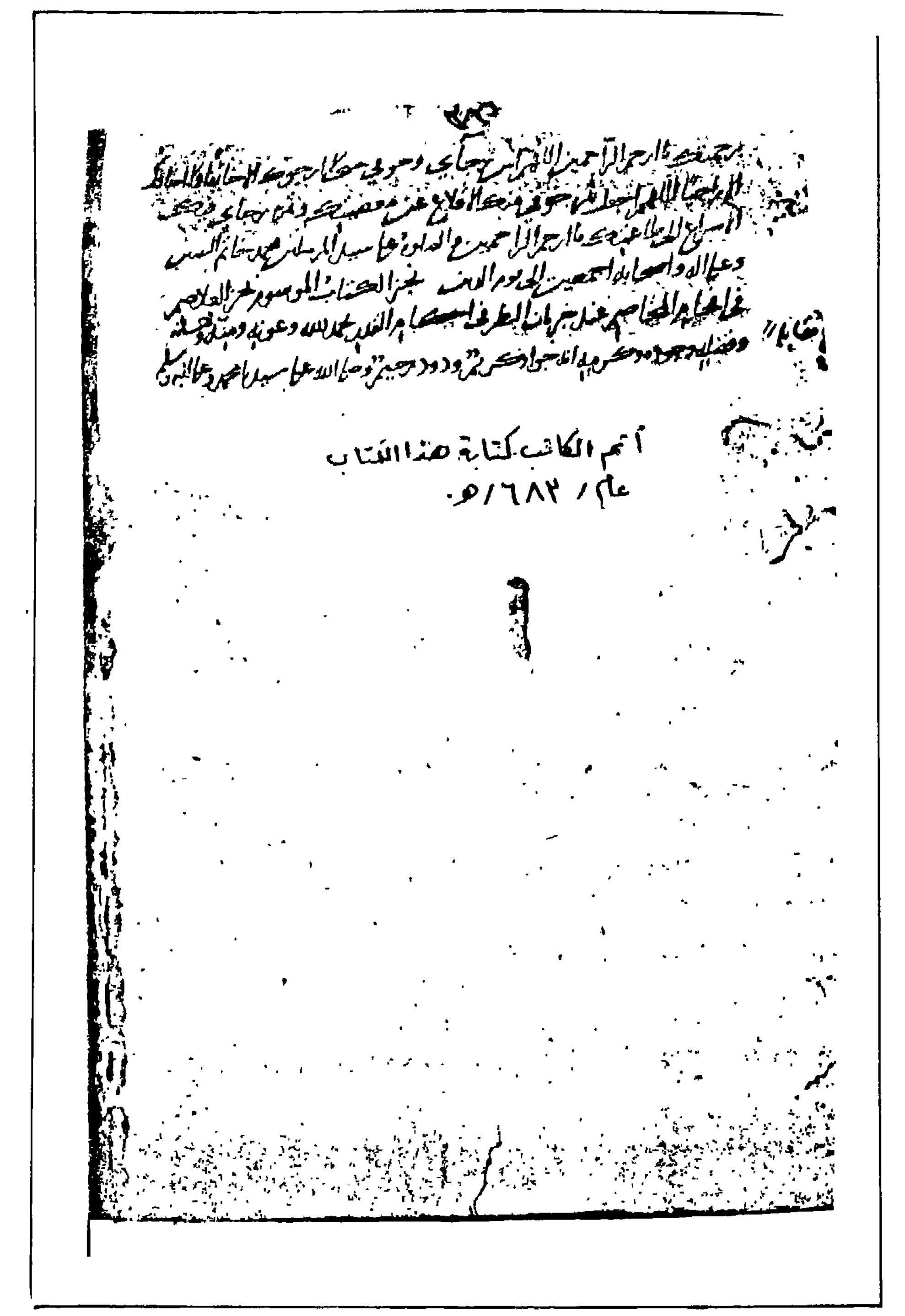


صورة الغلاف من مخطوطة حلب

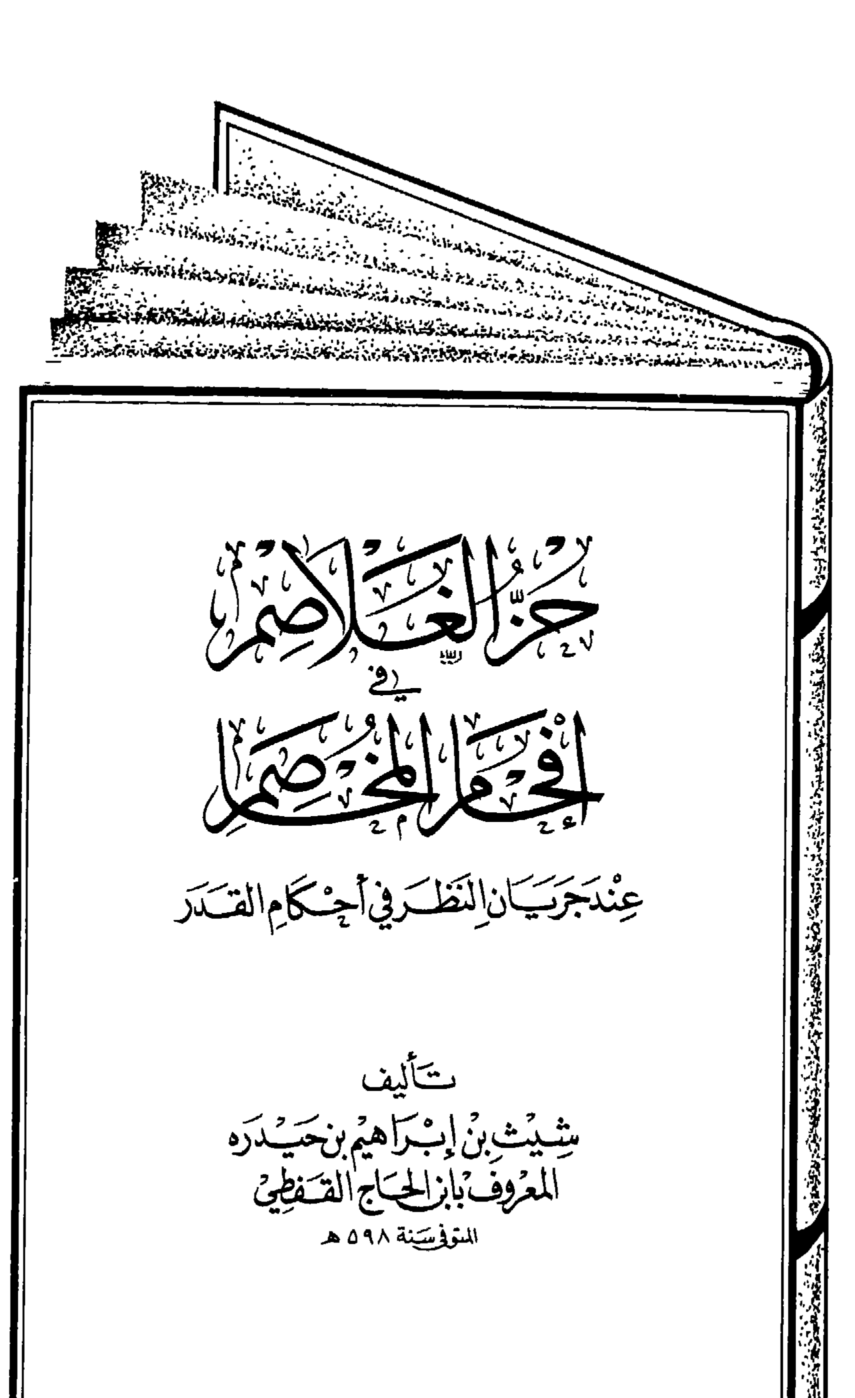
بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ النقيب الإمام حجة الإسلام ضياء الدين أبو الحسن شيث بن إبراهيم بن محمد
ابن حيدرة غفر الله له وعفا عنه: الحمد لله ناصر الحق ومعليه وخاذل الباطل
ومتبعيه والصلوة على إمام الهدى محمد المصطفى وعلى آله أهل الصدق والوفى ومن
والاهم ودان [illegible] اهتدى بهديه [illegible] وتحياته عليهم إلى يوم الجزاء أما بعد أيدك الله
بلطفه وأنوار الإيمان وزينك [illegible] بوظايف الإسلام واستعملك في الدنيا
بمتابعة السنة وأسعدك في الأخرى بجواره في الجنة ولا سلك بك في الحسبان
[illegible] واعز [illegible] بطيب المنتوج عند المحاوره وجريان المذاكره أن
[illegible] في [illegible] الله تعالى المتضمنة إقامة الحجة على صحة اعتقاد
أهل السنة في إرادة الكائنات المنوطة بخلق أفعال العباد وأنها متعلقة بمشيئته
وإرادته دون [illegible] وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب فعلها [illegible] ونسبته
وإضافته وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وتقديره وإلهامه وتوفيقه
فله الخلق والأمر والتقدير والتدبير والتيسير والتعسير وبيده الهداية والإضلال
والطاعة والعصيان والكفر والإيمان ولا يجري في ملكه وملكوته خير أو
شر نفع أو ضر فقر أو [illegible] حياة أو موت غنى أو فقر حلو أو مر [illegible]
[illegible] أو [illegible] أو [illegible] عرف أو [illegible] أو [illegible]
قعود [illegible] أو [illegible] إلا [illegible] الإرادة ومشيئته وعلمه وقدرته فما شاء
كان وما لم يشأ لم يكن [illegible] أن قدريا دخل على الصادق جعفر بن محمد
عليهما السلام فقال له يا ابن بنت رسول الله نزه الله عن الفحشاء فقال له جعفر الصادق
ما [illegible] وجل [illegible] أن يكون في ملكه ما لا يشاء فقال القدري يا ابن بنت رسول الله
[illegible] أن يعصى قال [illegible] فقال يا ابن بنت رسول الله
أن [illegible] الذي [illegible] طريق الردى أحسن [illegible] فقال عليه السلام
أن [illegible] فقد ظلم [illegible] وأن [illegible] فإنه [illegible] رحمة [illegible]

الورقة الاولى من مخطوطة حلب



الورقة الاخيرة من مخطوطة حلب


حز الغلاصم
في
إفحام المخاصم
عند جريان النظر في أحكام القدر
تأليف
شيث بن إبراهيم بن حيدره
المعروف بابن الحاج القفطي
المتوفى سنة ٥٩٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الامام حجة الاسلام ضياء الدين أبو الحسن شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدره غفر الله له وعفا عنه:

الحمد لله ناصر الحق ومعليه، وخاذل الباطل ومتبعيه، والصلاة على إمام الهدى محمد المصطفى، وعلى آله أهل الصدق والوفى ومن والاهم وبهديهم اهتدى، وسلامه وتحياته عليهم إلى يوم الجزاء.

سألت نور الله باطنك بأنوار الايمان، وزين ظاهرك بوظائف الاسلام، واستعملك في الدنيا بمتابعة السنة، وأسعدك في الأخرى بجواره في الجنة، ولا سلبك في المحيا ثوب التقوى، وأكرمك في الحسنى بطيب المثوى عند المجاورة وجريان المذاكرة، أن أنتزع الآيات التي في كتاب الله تعالى، المتضمنة إقامة الحجة على صحة إعتقاد أهل السنة في إرادة الكائنات المنوطة بخلق أفعال العباد، وأنها متعلقة بمشيئة وإرادته دون خلقه.

وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع إكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وتقديره وإلهامه وتوفيقه، فله الخلق والأمر والتقدير والتدبير والتيسير والتعسير، وبيده الهداية والاضلال والطاعة والعصيان والكفر والايمان.

ولا يجري في ملكه وملكوته خير أو شر، نفع أو ضر، فوز أو خسر، حياة أو موت، غنى أو فقر، حلو أو مر، سر أو جهر، وفاء أو غدر، نصح أو مكر، عرف أو نكر، حركة أو سكون، قيام أو قعود، قبض أو بسط، إيمان أو كفر، إلا بإرادته ومشيئته وعلمه وقدرته.

فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

كما روي أن قدرياً دخل على الصادق جعفر بن محمد[1] عليهما السلام، فقال له: يا ابن بنت رسول الله تعالى الله عن الفحشاء، فقال له جعفر الصادق: يا أعرابي وجل ربنا أن يكون في ملكه ما لا يشأ، فقال القدري: يا ابن بنت رسول الله أيحب ربنا أن يعصى؟ قال: يا أعرابي أفيعصى ربنا قهراً، قال: يا ابن بنت رسول الله أرأيت إن صدني الهدى فسلك بي طريق الردى، أحسن بي أم أساء، فقال عليه السلام: إن منعك شيئاً هو لك فقد ظلم وأساء وإن منعك شيئاً هو له فإنه يختص برحمته من يشاء. فأفحم القدري وبهُتَ ولم يجد جواباً. وهذا كلام حجته فيه، فما يحتاج إلى بيان ولا إقامة برهان، ولكن لا ينتفع به.إلا منَ خلقه الله للجنة.

فأما من خلقه للنار فلا يسمعه ولا يلج في جوانح قلبه، لأن الله تعالى لم يخلق له سمعاً يعيه به، ولا بصيرة ولا فهماً فإن الله تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا

---

(1) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٥٥: هو جعفر بن محمد عليه السلام بن علي بن الشهيد أبي عبد الله، ريحانة النبيﷺ وسبطه ومحبوبه الحسين ابن أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، ولد سنة ثمانين وتوفي في سنة ثمان وأربعين ومئة.

(2) ١٧٩: الأعراف.

(3) ١٢٦: البقرة.

لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾[1].

وقال في آخرين: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[3].

ثم قال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾[5] فعم بالدعوة ثم قال: ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[6] فخص بالهداية.

وقال تعالى لنبيه ﷺ في شأن من كان حريصاً على هدايته ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[7].

ثم كرر الدعاء لقومه، وأظهر الشفقة عليهم وهم معرضون عن إجابته، أنزل الله تعالى عليه ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[8].

ثم تمنوا عليه أمانـيَّ، وأقسموا بالله لئن أتاهم ما يتمنون ليؤمنن به، فأنزل الله

---

(١) ١٦٨ : النساء.
(٢) ١٧٦ : آل عمران.
(٣) ٢٤ : الأنفال.
(٤) ٢٤ : الأنفال.
(٥) ٢٥ : يونس.
(٦) ٢١٣ : البقرة.
(٧) ٨ : فاطر.
(٨) ٣٥ : الأنعام.

على نبيه ﷺ مجيباً لهم عن تمنيهم وقسمهم، فقال تعالى:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

ثم لما كان خبيراً بحالهم، وعالماً بمآلهم أنزل على نبيه ﷺ في شأنهم، تبأ لهم ووعيداً وتقريعاً وتهديداً وتحريساً عليهم وتنكيلاً فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى عقيب هذه الآيات:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[3].

فانظر كيف جزم وقطع بأنه لو فعل لهم ما تمنوه لما آمنوا إلاّ أن يشاء الله، وكذلك ما يفعله شياطين الأنس والجن بالأنبياء وعداوتهم لهم، وما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[4]. فعلق ما صدر من غرورهم وعداوتهم للأنبياء عليهم السلام بمشيئته جل جلاله، ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ

---

(١) ١٠٩، ١١٠: الأنعام.

(٢) ١١١: الأنعام.

(٣) ١١٢: الأنعام.

(٤) ١١٢: الأنعام، وقد مرّت قبلها.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1].

فانظر إلى الأنبياء عليهم السلام كيف تفطنوا لقدر الله، وأن جميع الكائنات منوطة بمشيئة الله سبحانه، ولذلك قال بعض الموحدين: مساكين القدرية خالفوا في اعتقادهم قول الله سبحانه، وهو ربهم وخالقهم ومالكهم وإليه مآلهم ومرجعهم، وخالفوا الملائكة الذين هم خاصة الله، والعارفون بالله وصفاته وهم أحق بمعرفة الاله جل جلاله وبصفاته وأحكامه في خلقه، وهم القائلون مع ذلك ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] وخالفوا أنبياء الله وهم خزنة وحيه، والمصطفون من خلقه وخالفوا أهل الجنة، وخالفوا أهل النار، وخالفوا شيخهم في الضلال إبليس، ورجعوا في إعتقادهم إلى سوء رأيهم وما زيّن لهم، ولم يجدوا محيصاً ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[3].

أما مخالفتهم لقول الله تعالى

فإنه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[5].

---

(١) ٨٨، ٨٩: الأعراف.

(٢) ٣٢: البقرة.

(٣) ١٣٧: الأنعام.

(٤) ١٣: السجدة.

(٥) ١٠٠: يونس.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾[1].

ثم مدحهم على ما خلقه فيهم، وحببه إليهم وزينه في قلوبهم، وما كرّهه إليهم وهو من عظيم كرمه وإحسانه وفضله وامتنانه كما يفعله ملوك الدنيا مع خواصهم فيما تشاهده العيان. ينعم عليه بحسن الملبوس والزينة في المركوب والخيل المسومة والسلاح وآلة الحرب المحملة، فإذا عرض عليه الجنود والجيوش في يوم الزينة وأعجبه زي بعض خواصه استحسنه وقال: ما رأيت في الجيوش وزي العساكر أظرف من فلان، ولا أزين من زيّه.

وإذا حَسُنَ من المخلوق هذا القول، فهو من خالق الخلق وأعمالهم أحسن وأحسن، فقس على ذلك جميع ما ورد في القرآن من الثناء الجميل على صاحبه، والكل من صنع الله وخلقه، مثل قوله: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[3].

ألهمهم لفعل الخير والأعمال الصالحة من تلاوة كتابه الكريم، وإقام الصلوٰة ونفقة المال، وهو الذي أعطاهم جميع ذلك ويسرهُم له ويسرَهُ عليهم. ثم تفضل

(١) ٧: الحجرات.
(٢) ١١٢: التوبة.
(٣) ٢٩، ٣٠: فاطر.

عليهم ومدحهم عليه وشكرهم، ثم سمى ما يجازيهم به على ذلك أجراً، ومن أين يستحق العبد المربوب المخلوق المملوك على خالقه وربه ومالكه والهه ومعبوده أجراً، لولا جميل إحسانه وعظيم إمتنانه وجزيلِ كرمه وعطائه لا عَدِمْنَا ذلك الفضل العظيم والطوْل الجسيم.

وقال تعالى في آخر هذه السورة ما يوافق أولها ويزيده وضوحاً لمن أراد الله به خيراً وفهمه كتابه: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[2].

والآيات في مثل هذا الفن لا تحصى، قد ذكرها الشيخ الفقيه الامام الأوحد أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين، بن الجبَّاب[3] رحمه الله عليه فيما أملاه علي، وهو كتاب « الاملاء » له في مجلدين.

وأما قول الملائكة

فقالت: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[4].

---

(١) ١٧ : الحجرات.

(٢) ١٧ : الكهف.

(٣) كذا في المخطوط، الجبَّاب بالجيم المعجمة المحركة. وفي « الديباج المذهب » لابن فرحون، الحباب بالحاء المهملة.

(٤) ٣٢: البقرة.

وأما قول الأنبياء عليهم السلام

فقد قال شعيب: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(1).

وقال نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(2).

وقال إبراهيم: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾(3).

وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾(4) الآية.

أفرده بالهداية كما أفرده بالخلق والرزق والشفاء والاماتة والاحياء والمغفرة يوم اللقاء.

والامامية(5) والقدرية(6) في هذه الآيات يؤمنون ببعضها، ويكفرون

---

(1) ٨٨: هود.

(2) ٣٤: هود.

(3) ٧٧: الأنعام.

(4) ٧٨، ٧٩: الشعراء.

(5) التعريفات للجرجاني ص/٥٣: هم الذين قالوا بالنص الحلبي على إمامة علي رضي الله عنه، وكفّروا الصحابة، وهم الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، عند التحكيم وكفّروه. وفي التبصير ص/٤١: واعلم أن الزيدية والامامية منهم من يكفر بعضهم بعضاً، والعداوة بينهم قائمة دائمة.. واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية - فهم خمس عشرة فرقة - متفقون على تكفير الصحابة، ويدعون أن القرآن قد غير عما كان، ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن، ولا على شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التي في أيدي المسلمين..

(6) التعريفات للجرجاني ص/٢٢٢: القدرية هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله، =

ببعضها، بَيْدَ أنه لو قيل لهم: من خلق إبراهيم الأواه؟ لقالوا: خلقه الله، ولو قيل لهم: من أطعمه وسقاه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل لهم: من أمرضه وشفاه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل لهم: فمن أماته وأحياه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل لهم: من يغفر له يوم يلقاه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل: فمن الذي إلى الايمان هداه، قالوا، ولم يستحيوا: هو الذي هدى نفسه، ولم يهده الله. ونفوا عن الله سبحانه هدايته لابراهيم وهداية المهتدين أجمعين وأثبتوا له جميع ما تضمنت له هذه الآيات فليت شعري من الذي قصر قدرة الرب سبحانه وإرادته على بعض المقدورات والمرادات، آله مع الله، آله دون الله، تعالى الله عما يشركون.

وهكذا فعلت الحشوية[1] إذا قيل لهم: أنتم تقولون معنا إن الاله جلّ جلاله يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة، ويسمع بغير أصمخة وآذان، ويبصر بغير حدقة وأجفان، فما باله أيضاً يتكلم بغير صوت وحرف فيكون كلامه سبحانه كما قال النبي ﷺ: «فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه»[2]. ووجدنا فضل الله على خلقه في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[3] فيجب أن يكون ليس كمثل كلامه كلام. وإذا كان عندهم أن كلام الله صوت وحرف، وكلام المخلوقين صوت وحرف، فقد صار كلامه مثل كلام المخلوقين، فلا فضل لكلامه على كلام البشر، وعرّضوا كلام رسول الله ﷺ للكذب في قوله عليه السلام: «فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه».

وكذلك ما قاله شعيب في الآية المتقدمة وهي قوله:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾[4].

= ويرون الكفر والمعاصي بتقدير الله، أنظر أيضاً التبصير في الدين ص/ ٢١ والفرق بين الفرق ص/ ١٨.

(١) تاج العروس ١٠/ ٩: الحشوية طائفة من المبتدعة.

(٢) رواه الترمذي في السنن أبواب فضائل القرآن ٤/ ٢٥٦ الباب الثاني من أبواب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ بلفظ: «... وفضل كلام الله على سائر الكلام...» وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ١١: الشورى.

(٤) ٨٩: الأعراف.

وقال موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ﴾[1].

فهذا قول أنبيائه وهم أعرف خلق الله بربهم وبصفاته ، وكل ما ينطقون به فهو مستفاد من بارئهم كما قال تعالى في الأخبار عن المصطفى ﷺ :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[2].

ألا ترى أن موسى صلى الله على نبينا وعليه حيث قال لربه في مناجاته

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾[3].

إنما استفاد ذلك من قوله تعالى في شأن قومه الذين عبدوا العجل ، الذين اتخذه السامريُّ لهم من الحُلي[4] ، وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى ، وكان في حال المناجاة ، فقال له ربه ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾[5] فلما رجع إلى قومه ورأى العجل منصوباً للعبادة وله خوار . قال ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾[6].

---

(١) ١٥٥ : الأعراف.

(٢) ٣ ، ٤ : النجم.

(٣) ١٥٥ : الأعراف.

(٤) القرطبي ١١/٢٣٣ : قال ابن عباس رضي الله عنها : كان السامري من قوم يعبدون البقر، وقيل : كان رجلاً من القبط، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه. وقيل : كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام، قال سعيد بن جبير : كان من أهل كرمان.

(٥) ٨٥ : طه.

(٦) ١٥٥ : الأعراف.

وأما قول أهل الجنة

فإنهم قالوا لما دخلوها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1].

وأما قول أهل النار

فإنهم قالوا لما اختصموا، ما حكاه الله عنهم، حيث قال سبحانه:

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[2].

وفي قوله تعالى ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا - إلى قوله - قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[3].

والمعتزلة يقولون: إن هداية الله لعباده إرسال الرسل، وإنزال الكتب وهذه الآية تكذبهم وتذري عليهم في اعتقادهم في الآيات التي في هذا الكتاب أيضاً حيث قالوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾[4]. فإن كانت الهداية إرسال الرسل، وإنزال الكتب فقد هداهم الله، فَلِمَ قالوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾[5].

فتدبر الاثنين جميعاً يظهر لك فساد إعتقادهم من كل وجه. وأحمد الله وأشكره على الاسلام والسنة والهداية والتوفيق.

---

(١) ٤٣: الأعراف.

(٢) ٢١: إبراهيم.

(٣) ٧١: الزمّر.

(٤، ٥) أنظر تخريج الآية رقم ٢.

وأما قول شيخهم إبليس:

الذي أطاعوه في كل ما زينه لهم ولم يطاوعوه في هذه المسألة فإنه قال:

﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(1).

والامامية منهم يلقنون أولادهم في حال الصغر فيقولون لهم: ما أحمق السنة، يعتقدون أن الله هو الذي يضل ويهدي، ويزين المعاصي للعاصي، وإنما الانسان هو الذي يفعل بنفسه ما يشاء دون خالقه. ويوردون على الصبي حكاية عن ابليس اللعين، وآدم عليه السلام، إبتدعوها من تلقاء أنفسهم لم تكن قط، اجتمع آدم صلى الله على نبينا وعليه وابليس يوماً، فقال آدم عليه السلام لإبليس: لولا أنت أغويتني ما عصيت ربي، قالوا: فقال إبليس: يا آدم فمن أغواني أنا حتى عصيت ربي؟ وقصدهم أن يتلقف أبناؤهم هذه، إن الله سبحانه لمّا أمر إبليس بالسجود أراد سجوده، فخالف إبليس أمر الله وعصى واستكبر وأبى كما أخبر الله سبحانه عنه، ولو كان مطيعاً لسجد .قلت له: فقد أمر الخليل إبراهيم عليه السلام بذبح الولد ولم يرد ذبحه، ولو أراد ذبحه كما أمره لذبحه وهو نبيٌ معصوم مطيع لله تعالى منزه عن المخالفة وعن الجهل بما أمره الله تعالى، وعن الجهل بصفات الله تعالى.

ولا يشك أحد أن إبراهيم أعرف بالله وبصفاته من القدريّة والمعتزلة والامامية. فقال: ما أمره قط وإنما رأى مناماً قلت:منامات الأنبياء وحي وحقّ، وهي من أمر الله سبحانه وقد أمره في المنام بذبح ولده عليه السلام.

ووجه آخر

إن إسماعيل نبي كريمٌ على الله، ومعصوم عن الخطأ والزلل فيما ينطق به من أحكام الله، وقد قال لأبيه إبراهيم عليهما السلام حين قال له ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ

---

(1) ٣٩: الحجر.

﴿فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[1] فأجابه بقوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[2] وحاشاه أن يقول لأبيه الخليل: إفعل ما تؤمر وهو لم يؤمر، ولكان إبراهيم يقول: يا بني ما أُمِرتُ وإنما رأيت في النوم أني أذبحك فأخذ يدندن ويتلعثم ويجمجم ويقول: قد وُجِدَ للذبح والتأم حلقه وهذا منه حركة المذبوح، وخجل المحجوج، ولهذا سمينا «الرسالة الذابحة للكلاب النابحة». وقد سمينا هذا الكتاب باسم مشتق منه في المعنى فسميناه «حز الغلاصم في إفحام المخاصم» كل هذا فراراً من الإنقياد للحق، وحسداً لمن عثر عليه دونه، وحرصاً على تصحيح إعتقاده، إن الارادة هي نفس الأمر والباطل لا يقبل البصيرة أبداً، ولا يتمشى أبداً، كيف يكون الذبح قد وُجد والله تعالى يقول: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[3] فلا معنى للفداء إن كان الذبح قد وجد، وكان هذا القائل إماماً عظيماً عندهم، كبير الشأن يزعم ويزعمون أنه لا تفلح له حجة ولا تقصم له عُرْوَة.

وما أحسن ما جرى بين مجوسي[4] وقدري، وهما في إعتقاد هذه الأمة سواء، لأن المجوس يقولون: بآلهين ويسمون الثنويه لذلك. وقد جاء حديث عن النبي ﷺ يقول فيه: «القدرية مجوس هذه الأمة»[5] من حيث أنهم جعلوا مع الله شركاء كثيراً، فالخلق عندهم خالقون لأفعالهم حسنها وقبيحها، والمجوس يجعلون مع الله شريكاً واحداً يخلق الشر لا غير. وهؤلاء يقولون: إن الخلق يخلقون إيمانهم وكفرهم وطاعتهم وعصيانهم.

ولقد جرت هذه المسألة للشيخ الفقيه الامام الرشيد جمال الفقهاء أبي الطاهر

---

(١) ١٠٢: الصافات.

(٢) ١٠٢: الصافات.

(٣) ١٠٧: الصافات.

(٤) ذكر أبو منصور الماتريدي في التأويلات في اثبات مغايرة الارادة للأمر: «إن الله أمر إبراهيم بالذبح وفداه بكبش فلا يجوز أن يكون أراد فعل حقيقة الذبح ثم يمنع عنه بالبدل لانه آية البداء وعلامة الجهل فكان الأمر لا بالذي به حقيقة الارادة».

(٥) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة ٢/ ٢٧٠ باب في القدر.

إسماعيل بن مكي بن عوف[١] أعزّه الله في مجلس رضوان بن [الوحشي][٢] وهو سلطان مصر مع رجل من كبار الامامية يُقال له ابن الصغير سأله رضوان أن يتكلم معه في هذه المسألة.

قال الشيخ الفقيه أبو طاهر في كتاب صنفهُ لرضوان هذا فيه الرد على الامامية يقال له: «كفاية المقتصد ونهاية المجتهد» قرأته عليه رضي الله عنه، وهو كتاب مفيد جداً. أودع مناظرته معه في هذا الكتاب يقول فيه: سألته عن خلق الأفعال التي تصدر عن العباد أهي خلق الله أو خلق لهم. قال رضي الله عنه: فسألته بلفظ القرآن لعله يتنبّه أو يستحي فقلت له: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[٣]. ففكر ساعة ثم قال: الله خالق أفعاله والانسان خالق أفعاله، قال: فقلت: إنفرد الانسان بخلق أفعاله واستبد بها؟ قال: نعم، قال: فقلت له: يا هذا لقد أشركت بالله، فقال: ومن أين أشركت بالله، وتطاول لها رضوان وأصغى إلى ما ألقي، فقلت: من جملة أفعال الانسان، وهو أشرف من سائر المخلوقات كلها، الجواهر وبقية الأعراض. فقد صار ما خلقه الانسان أشرف مما خلقه الله تعالى، والله يقول:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٤].

وإذا كان الإنسان هو خالق الايمان وهو أفضل وأشرف من بقية المخلوقات، فقد ذهب الانسان بما خلق، وذهب الله بما خلق، وعلا الانسان على رب العباد جلّ ذلك الجلال، أن توزن صفاته بميزان عقل الامامية، وأهل الاعتزال، فتأمل راشداً هذا السؤال، وهذا الجواب وهذا الإفحام في هذا المقام.

---

(١) هو إسماعيل بن مكي بن عيسى بن عوف الزهري الاسكندراني المالكي أبو طاهر متكلم توفي سنة ٥٨١ هـ. انظر شذرات الذهب ٤/٢٦٨، الديباج ص/٩٥، ٩٦.

(٢) أما في المخطوط: الختي والتصويب من «حسن المحاضرة ٢/٢٠٥. ولقبه الملك الأفضل ولم يلقب وزير بذلك قبله.

(٣) ٣: فاطر.

(٤) ٩١: المؤمنون.

رجعنا إلى ما جرى بين المجوسي والقدري

فإن هذا الكلام جرى في عرض ما أوردناه لأنه يشاكله، فاستوفينا المقصود فيه، قال القدري للمجوسي: ما لك لا تسلم؟ فقال المجوسي: حتى يريد الله، فقال القدري: قد أراد الله ولكن إبليس اللعين لا يدعك، فما أحسن جواب المجوسي للقدري قال: إن كان الله يريد إسلامي ولم يرده إبليس فكان الذي أراده إبليس دون ما أراده الله، فأنا مع أقواهما. فبهت القدري[1] وهذا دليل التمانع في إقامة الدليل على توحيد الله تعالى، لأن العلماء فرضوا هذه المسألة على من يقول: إن للعالم إلهين، بأن قالوا: لو كان للعالم إلهان، لكان أحدهما إذا أراد حياة جسم ما، وأراد الآخر إماتته فإن تم مراد أحدهما دون الآخر فهو الاله حقاً لنفوذ إرادته ومشيئته، والآخر ليس بآله لقصور مشيئته وعجزه، ومحال أن يتم مرادهما جميعاً لاستحالة الجمع بين الضدّين، فلا يكون الجسم حياً ميّتاً في حال واحد أبداً، فلا بد أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فالذي تم مُرادُه وغلبت مشيئته هو الاله، فاعلم ذلك وكرره فهو عند العلماء النظار دليل التوحيد، وهو دليل التمانع وهو مضمون قوله تعالى فيما أرشدنا إليه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2].

وقال آخر:

مساكين القدرية، أرادوا أن يصفوا الرب سبحانه بالعدل، وسموا نفوسهم العدليّة فوصفوه بالعجز، وذلك أن قول القدرية وإعتقادهم أن الله سبحانه أراد من خلقه أجمعين الايمان والطاعة، وأن إبليس أراد منهم الكفر والعصيان. وإذا تأملت مرادات إبليس في الدنيا وجدتها أكثر من مرادات الله سبحانه فإذا كان الله تعالى قد

---

(١) روى نحو ذلك العبدري في كتابه الدليل القويم على الصراط المستقيم ص٦٢: اجتمع معتزلي ومجوسي في سفينة فقال المعتزلي للمجوسي: لماذا لا تسلم؟ فقال المجوسي: الله ما شاء لي، فقال المعتزلي: إن الله شاء لك ولكن الشيطان منعك. فقال المجوسي: إذاً أنا مع الغالب.

(٢) ٢٢: الأنبياء.

أراد من الكفار والعصاة الايمان والطاعة فما كانت، وأراد منهم إبليس العصيان والكفر فكان ما أراده، فقد نفذت مشيئة إبليس وإرادته ولم تنفذ مشيئة الله وإرادته، فقول الناس إذن كافة: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» باطل، والصحيح على قولهم، وسوء اعتقادهم أن يقول القائل: «ما شاء إبليس كان وما شاء الله لم يكن». ونستغفر الله من تسطير هذه الكلمات، ولكن حاكي الكفر ليس بكافر، ولله الحمد على نعمة الاسلام والسنة.

فمن ردّ ولاية الرب سبحانه إلى صورة لو ردت إلى زعيم بلدة لاستنكف أن تنسب إليه، وذلك أن زعيم بلدة إذا علم أن معه في بلده معانداً له إذا أراد أمراً أراد المعاند نقيضه ثم يتم مراد المعاند دون مراد الزعيم وهو يعلم معاندة معانده، ولا ينكر عليه، ولا يمنعه من عناده، ولا ينفيه من بلده، ولا يقتله فهو عاجز عنه. والله يتعالى أن يوصف بالعجز أو الجور ولو كان كذلك لخرج عن الالهية، وانعزل عن الربوبية، ولم يكن إلهاً مطاعاً، وهذا هو دليل التوحيد الذي قدمنا ذكره فافهم.

والقدرية إنما ضلت في هذه المسألة من حيث قاست عدل الله تعالى على عدل عباده، فإن عباده مأمورون ومنهيون ومملوكون ومربوبون، وليس لهم ملك يتصرفون فيه إلا بإذن مالكهم، فما سوّغه لهم ساغ لهم التصرف فيه، وما لم يأذن لهم بالتصرف فيه ولو كان ملكهم لم يسغ لهم ذلك، وقد شرع لهم جلّ وعلا أن من تصرف في ملكي بغير إذني أو مِلْكِ أحَدٍ من خلقي بغير إذنه، فقد ظلم ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] ومن تصرف في ملك الله بغير إذنه فقد ظلم وتعدّى، ولو كان تصرفه في عبدٍ من عبيده بغير ما أذن له مالكه على الحقيقة، فإنه سبحانه قد أذن له أن يتصرف في عبده تصرفاً خاصاً لا عاماً، فلا يجوز له أن يقطع يده، ولا يفقأ عينه، ولا يجيعه، ولا يضربه، ولا ينكحه، فمتى فعل شيئاً من هذا وأشباهه فقد تعدى وظلم وجار وعصى وخالف، واستوجب العقوبة على ذلك من

(١) ٢٢٩: البقرة.

المالك الحقيقي المشرع الذي أرسل إليه وإلى سائر خلقه الرسل، وحدّ لهم الحدود وأمر ونهى ووعد واوعد.

بل إذا قتل الانسان نفسه أدخله النار، وقال له: لم تعديت على ملكي، وتصرفت فيه بغير إذني؟ فلأدخلنك ناري ولأوجبنّ عليك سخطي.

والقدرية يذهلون عن هذه الأمور الالهية والحكمة الربانية، ويقيسون عدل الخالق على عدل المخلوق، فما كان منهم قبيحاً عندهم فمثله عندهم من الله قبيح، وهو سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾(١) ولا يقاس عدله بعدل العباد كما قال أبو حامد الغزالي، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله سبحانه، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، فكل ما سواه من جن وإنس ومَلِكٍ وشيطانٍ وسماءٍ وأرضٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجوهرٍ وعرضٍ ومُدْرَكٍ ومحسوسٍ حادثٌ إخترعه بقدرته بعد أن لم يكن. فإذا تصرف في ملكه كيف يقال له ظلمت، ولو أنه سبحانه حيث خلق أبانا آدم عليه السلام من قطعة من الطين أعاده إلى النار، فمن ذا الذي يقول أنه ظلمه وهو مالكه وموجده ومحدثه، جلّ ربنا وتقدّس عما يضيفه إليه الملحدون وتعالى علواً كبيراً.

واعلم رحمك الله ويسرّ لك فهم كتابه العزيز، وسرّه في قدره وحكمه في خلقه وتصاريفه في تدبيره، إنك إذا تأمّلت آيتين من الكتاب العزيز فكفتاك إحداهما:

قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾(٢).

والأخرى قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾(٣).

---

(١) ٢٣: الأنبياء.
(٢) ١٤: التوبة.
(٣) ١٧: الأنفال.

فافهم فإن الله تعالى هو الفاعل الحقيقي، ولا فاعل سواه، ولا خالق إلاّ هو، قال الله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]، أي خلقكم وعملكم.

وافهم أنه جلّ وعزّ الفاعل على الحقيقة، وغيره فاعل على المجاز، وأنه يتصرف في نسبة أفعال خلقه التي خلقها، تارة ينسبها إلى من اكتسبها وظهرت للناظرين منهم فيقول سبحانه ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] ويقول: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3] ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[4] وشبه ذلك كثير.

وتارة ينسبها إلى نفسه لأنه خالقها فيقول سبحانه

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[5] ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[6] ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾[7] ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾[8].

ويقول: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[9].

جاء في التفسير فإذا قرأه جبْريل فاتبع قراءته[10].

---

(١) ٩٦: الصافات.
(٢) ١٧: السجدة.
(٣) ١٢: الانفطار.
(٥) ٤٥: العنكبوت.
(٦) ١٧: الأنفال.
(٧) ١٤: القصص.
(٨) ٣: القصص.
(٩) ١٨: القيامة.
(١٠) القرطبي ١٩/ ١٠٦: كان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام إستمع، وإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأ النبي ﷺ كما أقرأه؛ خرجه البخاري أيضاً.

وكذلك قوله ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[1] والأمة وجميع الأمم مجمعون على أن الذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام. فإذا تمدح جل وعز نسب فعلك إليه ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[2] وإذا أراد مديحك أو شكرك أو تبكيتك أو ذمك قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3] و ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾[4] وكذلك أمرنا إذا دعونا أن ندعوه بأسمائه الحسنى ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[5].

فنقول: يا هادي الخلق اغفر لي، ولا نقول: يا **مضل** الخلـق، ويا كاشف الضر، ولا نقول، يا هازم المؤمنين يوم حنين، ولا: يا قاتل المؤمنين يوم أحد. وهكذا تأدّب معه أنبياؤه عليهم السلام فقال إبراهيم عليه السلام ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾[6]، ثم قال ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾[8]. ولم يقل: بيدك الخير والشر.

وحكي عن بعض العارفين، أنه بينما هو يناجي ربه ويقول في مناجاته: يا رب أنت شئت وقضيت، وحكمت وكتبت، فنودي هذا أدب التوحيد فأين أدب العبيد

---

(١) ١٠٢: طه، ٨٧: النمل، ١٨: النبأ.
(٢) ١٧: الأنفال.
(٣) ١٧: السجدة.
(٤) ١١٢: التوبة.
(٥) ١٨٠: الأعراف.
(٦) ٧٨، ٧٩: الشعراء.
(٧) ٨٠: الشعراء.
(٨) ٢٦: آل عمران.

فقال العارف: وأنا عصيت، وأنا اجترأت، وأنا خالفت، فسمع هاتفاً يقول: وأنا سترت وأنا صفحت وأنا غفرت. فافهم هذا السر فإنه لا يعقله إلاّ العالمون.

أعني هذا وما قدّمته من أنه يتصرف في أفعال خلقه كيف يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

فإن قيل: إنه لا يليق بآلهيته وعدله وجوده أن يعذب خلقه لأجل ما فعله فيهم من الاضلال والكفر والعصيان وقد قال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾[2].

فالجواب أن تقول: من ههنا غلطتم وظننتم أن الله يعذب خلقه بكفرهم ومعاصيهم. ونحن نقول أنه لا يعاقب ولا يعذب إلا بحق الملكِ، وجعل الكفر والعصيان علامة على الكافر والعاصي، ولتصح المعاملة بين المؤمنين والكافرين، فيوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، ويجاهد الكفار، ويعزّ المؤمنين، كما وصف أصحاب نبيه عليه السلام فقال تعالى

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3] ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[4].

وتصح المناكحة والموارثة والعيادة والموادات وسائر معاملات الشرع، فاعلم ذلك.

والدليل على أن الله سبحانه لا يعذبهم إلاّ لكونه عبيده وملكه، قول عيسى ﷺ فيا حكاه الله عنه إذ يقول ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[5] ولم يقل: عصوك، وانظر

(١) ٢٣: التوبة.
(٢) ٤٠: النساء.
(٣) ٥٤: المائدة.
(٤) ٢٩: الفتح.
(٥) ١١٨: المائدة.

إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1].

نستفد منه أنه سبحانه لولا أن له أن يعذبهم قبل مجيء الرسل الحق الملك لما تمدّح بقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] وفي ضمن الآية ما في ضمن قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2] وهو سبحانه يعلم قبل ن يبلوهم فتدبره. ومن تصرف في ملكه لا يقال نه ظالم لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والظلم أيضاً أن يتعدى المكلف ما حدّ له مالكه.

فإن كان مع الله شريك وله ملك دون الله فيتصرف الله سبحانه في ملك شريكه بغير إذنه فهو ظالم، وإن كان الله سبحانه مالك الأعيان ومالك الكونين وبيده ملكوت كل شيء، وملكوت السمٰوات والأرض ولا شريك معه في ملكه، ولا يتصور الظلم منه تعالى أبداً، فإنه تعالى لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، ولا فوقه رب يحد له حدوداً حتى إذا خالف حداً من حدوده كان ظالماً كما قال: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3] تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو سبحانه يعذب من يشاء من خلقه بما شاء من عذابه.

قال الله تعالى في محكم كتابه قال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾[4] ولم يقل من عصى، فإياك ثم إياك أن تقيس الرب بالعبد، والخالق بالمخلوق، فتزلّ عن صراط ربك المستقيم وتقع في طريق الشيطان الرجيم الذي قاس بعقله قياساً واحداً فزلّ عن طريق الله فهلك مع الهالكين، ونسب هذا الطريق إليه فسمي طريق الشيطان الرجيم، وذلك أنه فكر في نفسه وقال النار أشرف من الطين، لأن النار

---

(١) ١٥: الاسراء.

(٢) ٣١: محمد.

(٣) ٢٢٩: البقرة.

(٤) ١٥٦: الأعراف.

نورانية والطين من الظلمة فإنا خير من آدم لأن النار خير من الطين.

ولو علم أن الخيرّ من كان عند الله خيراً، لأطاع ربه كما أطاعت الملائكة أجمعون، ولكن جعله الله لأهل الشقاء سبباً، فاحتج بهذا الاحتجاج وارتكب هذا اللجاج فهلك هلاك الأبد بسوء نظره وفساد قياسه، ولو شاء سبحانه لعصمه وزين في قلبه الطاعة كما زيّنها للملائكة، أو تاب عليه وعفا عنه كما عفا، وتاب على آدم نبيّه، ولكن قد أعلمتك أنه يتصرف في ملكه كيف يشاء.

وهذا معنى وصفه بأنه ماكر ومستدرج ومخادع.

قال أبو طالب المكي رحمة الله عليه في كتابه المسمى « قوت القلوب » : يعفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الحقير لبلايا من ملِكَ بعمله ولا ييأس مسرف على نفسه من عفوه وبهذا يتحقق المكر في حقه.

وقال أيضاً: أوحى الله تعالى إلى نبي، أو قال لنبي: قل لفلان كم ذنب واجهتني به غفرته لك، أهلكت في دونه أمة من الأمم.

وقال: إن لله عبدين إشتركا في المخالفة آدم وإبليس، هذا لا تأكل فأكل، وهذا اسجد فما سجد فتاب على آدم واجتباه، ولعن ابليس وجزاه.

قال: ويشترك في المعصية الواحدة في المكان الواحد جماعة فيغفر لبعضهم، ويعذب في الدنيا بعضهم، ويتوب على بعضهم، ويؤخر لعقوبة الآخرة بعضهم، ويبدل بعد التوبة لبعضهم سيئآتهم حسنات.

لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. لا يقال لما فعلت هذا، ولا كيف فعلت وكل من سواه يسئل لم فعل ولم ترك، لأن الآمر المكلف يسئله ولا مالك مع الله، ولا دون الله، ولا فوق الله فيسئله عن أمره أو حدوده، والتصرف في ملكه بغير إذنه، فلا يتصور الظلم من الله أبداً. فاعلم.

قال أبو طالب: ولقد عددت لأخوة يوسف الصديق عليهم السلام وفي قوله

تعالى حكاية عنهم ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[1].
إلى آخر القصة.

نيفاً وأربعين ذنباً صفح عنها، وغفرها لهم ولم يحتمل لابليس ذنباً واحداً. وقد قيل: إنه عَبَدَ الله ثمانين ألف سنة، ولم يبقَ في السموات السبع موضع شبرٍ إلا سجد لله فيه، فأحبط الله جميع حسناته وقرباته، وسائر أعماله في طول مدته وأخذه بذنب واحد.

ولم يحتمل لبلعمر بن باعوراء[2] ذنباً واحداً فسلبه بالإيمان والتوحيد. وحديثه مشهور وفي الكتب مذكور ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3].

وفكر بعضهم في قوله تعالى ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[4].
فلقي سمنون فسأله عنها، فتأوَّه وأنشأ يقول:

ويقبح سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

فقال السائل: يا سمنون سألتك عن آية في كتاب الله، فأجبتني ببيت من الشعر، فقال له سمنون: أنشدته لتعلم أن في أقل قليل أدل دليل، ثم قال له: يا هذا إمهاله لهم مع مكره مكر بهم، قلت: صدق سمنون، ألا تراه قد قال في موضع آخر، ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ● فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5] وفيما هدد الله به الثقلين قوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[6].

---

(١) ٩: يوسف.
(٢) يقال أنه من ولد لوط، وقصته في كتب التاريخ، انظر الكامل في التاريخ ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠٢.
(٣) ٩٩: الأعراف.
(٤) ٥٤: آل عمران.
(٥) ٥٠، ٥١: النمل.
(٦) ٣١: الرحمن.

سأل بعضهم عن مخرج هذا الكلام في حق الله تعالى، وقال: هل الله تعالى في شغل حتى يفرغ منه؟ فقيل له: إنما هذا على معنى الامهال لا على معنى الاشتغال. فإنه سبحانه كل يوم هو في شأن ولا يشغله شأن عن شأن، ومخرج هذا الخطاب الوعيد والتهديد، أي سنعمد إلى مجازاتكم بعد أن أمهلناكم وأملينا لكم.

فمن قاس فعل الرب الآمر المالك على فعل المربوب المأمور المملوك، كان كمن قاس ذات الرب على ذات العبد، فجعل إلهه شبهه، ومثّله جسماً مصوراً محدوداً مقدراً وجوهراً متحيزاً، وكما لا يجوز قياس الذات على الذات، فكذلك لا تقاس الصفات على الصفات، فإنه سبحانه يتعالى عن مشابهة خلقه من كل الجهات، ولولا ما سبق به الكتاب على ألسنة أنبيائه عليهم السلام، من تنعيم المؤمنين وتعذيب الكافرين، لجاز له بحق الملك أن يدخل الكل منهم الجنة أو يدخلهم أجمعين النار، ولا يكون سبحانه ظالماً ولا من الحكمة خارجاً.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

وقال حكاية عن عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

قال الفقيه أبو حفص عمر الذّهبي رحمة الله عليه: ظفرت البارحة بآية من كتاب الله تعالى هي أحب إليّ من مائة ألف، قلت: ما هي؟ قال: القدرية والمعتزلة والامامية يقولون ان الله تعالى يعذب خلقه بذنوبهم، ولا يجوز في حكمته أن يغفر لهم، ومتى غفر لهم فليس بحكيم، فأكذبهم الله تعالى في هذه الآية كما ترى: ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾.

فتبينها وتدبّرها تعرف مقدارها ومقدار المبتهج بها، وهو الفقيه أبو حفص رحمة الله عليه.

---

(١) ١٥: الاسراء.

(٢) ١١٨: المائدة.

وقد ورد في القرآن العظيم قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[1] أي تَعِمُّ الصالح والطالح ، فلولا أنه يتصرف في ملكِهِ كيف شاء لما حسن منه ذلك. .

فاعلم، ولا تقيس الخالق على المخلوق ولا المالك على المملوك والسرّ في هذا. والله أعلم أن تسمية الرب سبحانه تتلقى من جهة الشرع لا من جهة العقل، فما سمى به نفسه، سماه به خلقه. فنسميه ماكراً وجباراً ومتكبراً وناسياً[2] ومخادعاً ومزيفاً ومستدرجاً لورود الشرع بها، وهي صفات ذم في حق أنفسنا إذ قلنا فلان جبار متكبر ماكر مخادع وناس ومستدرج، ولا نسمي الاله سبحانه عاقلاً فقيهاً أديباً شاعراً لبيباً ذكياً فطِناً لعدم ورودها شرعاً وإن كانت في حقّنا صفات مدحٍ وكمال، فلا تقاس الملائك بالحدّادين كما قال أبو حامد الغزالي رحمة الله عليه، ولا الاله الخالق بالمخلوقين جل الله وتعالى عن التشبيه والتمثيل. فإن قيل: أنتم تقولون ان الرب يأمر عباده بأمر، وهو يريد منهم خلافه، أمر إبليس بالسجود ولم يرد سجوده، وأمر فرعون بالايمان وهو يريد أن يموت على كفره، وكذلك سائر الكفار والعصاة أجمعين وهذا لا يتصور من العاقل، كيف يجوز للحكيم أن يأمر عبده بأمرٍ وهو لا يريد امتثاله؟ ومن فعل ذلك عد سفيهاً خارجاً عن الحكمة، والعاقل منا لو فعل ذلك لعُد سفيها خارجاً من حزب العقلاء، وهذا لا يتصور من عاقل ولا حكيم أن يفعله، وأنتم تقولون: يا معشر السنة إن كل من مات على الكفر والعصيان وقد أرسل إليه رسولاً، وأمره بالايمان والطاعة، إنه لم يرد إيمانه ولا طاعته فكيف يتصور هذا؟ فأفيقوا لأنفسكم من هذا القول الذي لا يتصور لعاقل.

---

(١) ٢٥ : الأنفال.

(٢) لسان العرب ١٥/ ٣٢٢ مادة (ن س أ) وقوله عز وجل: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾، قال ثعلب: لا ينسى الله عزّ وجل، إنما معناه تركوا الله فتركهم، فلما كان النسيان ضرباً من الترك وضعه موضعه، وفي التهذيب: أي تركوا أمر الله فتركهم من رحمته، وقوله تعالى: ﴿ فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي تركتها فكذلك تتركُ في النار.

قلنا : قد ثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن الله تعالى يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا يتصور منه ظلم أبداً، لأنه إنما يتصرف في ملكه لا في ملك لغيره. فلا يلزمنا إعتراضكم. وقد مهدنا هذه القاعدة وإنما يبقى استبعادكم أن يقع الأمر من الحكيم لخلقه، وهو لا يريد امتثال أمره ونحن نقطع استبعادكم بصورة نفرضها يشهد العقلاء أنها حسنة، وأن الآمر حكيم فيما أمر به، وفيما أراده مخالفاً لأمره.

فنقول : لو أنعم السلطان على بعض خواصه بمملوك وهبه له وأكرمه، بأن يكون خادماً له تشريفاً له، فأهانه وضربه وطرده، فدخل الخادم على السلطان باكياً شاكياً، فقال: أنعمت بي على من يجهل قَدْري، ولا يعرف مقدار نعمتك عليه، فأهانني وضربني وطردني، وفي إهانتي إهانتك أيها الملك، فغضب السلطان لذلك، وقال: علي بفلان، فأحضر بين يديه، فعتب عليه، وقال: أكرمتك بمملوكي يخدمك فأهنته وضربته وطردته؟

قال: أيها الملك عذري فيما فعلت واضح فقال: أوضح عذرك وإلا انتقمت منك، فقال: ما أمرته قط بأمر فامتثله فأغضبني فطردته. فقال الملك: إستحق العقوبة والنكال، ولكن قد صرت له خصماً، فلا أقبلك عليه إلا بدليل أو شهادة. فقال: أيها الملك! أحضره إلي بين يديك، وأنا آمره بأمر، فإن امتثله فقد كذبت في قولي، واستحققت النكال والعقوبة، وإن لم يمتثل أمري فقد صح عند الملك عذري، والملك مخير بعد ذلك. فعند ذلك أرسل الملك من أحضر الغلام، وأمره سيده بأمرٍ، فيا أيها السامعون العقلاء المنصفون! تدبروا هذه القضية وقولوا ما عندكم فيها، هل السيد يريد امتثال أمره أم لا يريد امتثال أمره؟ فإن كان يريد إمتثال أمره، فقد عرّض نفسه للهلاك، وإن كان قد أمره وهو لا يريد امتثال أمره بما لا يريد وهو عاقل حكيم، وقد أمر أمراً جزماً، وهو لا يريد وقوع المأمور به، ولا يعد عند سائر العقلاء سفيهاً، ولا خارجاً عن الحكمة، بل لو أراد وقوع المأمور به لعدّ سفيهاً مجنوناً، فإذا كان هذا في مخلوق، والحسُ شاهده والعقلاء تستحسنه، ولا تستبعده، فمن استبعد أن يقعَ نظيره من المالك الحقيقي الذي لا مالك فوقه يأمره ويزجره ولا حكيم مثله، فما أجهله بحقائق الأمور، ما أجهله وقد قيل: رمتني بدائها وانسلّت.

فإن قالوا: فقد أفسدتم مذهب القائلين بأن الادارة نفس الأمر وعنيتم أن الحكيم يصح منه أن يأمر بما لا يريد، وصورتها الصورة المذكورة في العبد مع سيده إذا أمره وهو لا يريد امتثال أمره، ويتبين منها وجود الأمر مع عدم الإرادة وهذا هو حقيقة الغير من أن يوجد أحدهما مع عدم الآخر، فإذاً ثبت هذا. وقلتم: ان الله تعالى أمر الكفار أن يؤمنوا ولم يرد إيمانهم، فما كان منهم إيمان ولا وجد. وقلتم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فقد وقع كفرهم ووجد فإذن قد أراده الله، فكيف يصبح من الحكيم العدل أن يريد آمراً فإذا كان ما أراد عاقب المكتسب له عليه؛ وهذا ما لا يصح وجوده من الحكيم، ولا يتصور البتة، ولو فعله لخرج عن الحكمة، وصار سفيهاً جائراً، وليست هذه صفة العاقل منا، فكيف الاله الحكيم العدل؟

وكذلك إذا أراد العاقل منا من عبده أمراً، ففعله العبد فعاقبه السيد على وجود مراده كان ظالماً، معرضاً للوم كافة العقلاء.

قلنا: هذا ذهول منكم وغفلة، عما أوردناه. ونورد من ذلك أنا قدمنا أن الله سبحانه لا يقاس عدله بعدل العباد، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله تعالى، فإنه لا يصادفُ لغيره مِلْكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً. ومن ذلك أيضاً، أنه قد ثبت أن الارادة غير الأمر، ونحن لا نقول أن الله تعالى آمر الكفار بالكفر، وعاقبهم على ما أمرهم به بل نقول: أن الله تعالى يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر[1]، فلم يبق إلا استبعادكم من كون الحكيم يعاقب على ما آراد. وقلتم: أنه لا يتصور ولا يفعله الحكيم أبداً، قلنا: نحن نفرض صورتين ذكرهما علماؤنا رضي الله عنهم في جواز وقوع العقوبة من الحكيم العدل على ما آراده، ولا يعد سفيهاً ولا خارجاً عن الحكمة ولا يلومه العقلاء على العقوبة.

أما الصورة الأولى: فأن يكون للعاقل منا عبيد، وفيهم عبد مخالف لسيده، وسالكاً للطرائق الذميمة، وهو يمقته ويبغضه ويتمنى أن لو أراحه الله منه، بموت أو

---

(١) لقوله تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ ٩٠: النحل.

بمن يقتله. وعلم الناس ذلك فيه فقتل ذلك الغلام بعض مماليكه، فبلغه قتله ففرح به وسرّ، ثم وجد قاتله، فأنكر عليه قتله للغلام، وقال له: كيف تقتل غلامي بغير إذني؟ فقال: سيدي! والله ما قتلته إلا لأريحك منه، لأنك تمقته وعلمت مرادك فيه فأرحت الدنيا منه، وأرحتك من سوء فعله، فأمر بقتله وهذه عقوبة قد وجدت من عاقل حكيم عادل، وهي عقوبة على ما أراده وتمناه. ومع ذلك لم يخرج من حزب العقلاء، ولا عن الحكمة، ولا يلومه أحد، بل لو تركه لعرّض نفسه لخطر المطالبة من إلهه ومالكه على ترك القصاص، فإنه الذي أمر بقتل النفس بالنفس، فكيف بمالك لا آمر فوقه يأمره، ويزجره ويحد له حدوداً، وهو يتصرف في ملكه تصرفاً كلياً، ولا يخاف مطالبة ولا عقوبة ولا لوماً ولا حجراً. وهو ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1].

والصورة الثانية: في ملكين يملكان الدنيا كل منهما في مملكته فخرج أحدهما على الآخر وجهز العساكر والجيوش إلى بلاد الملك الآخر، فدهمه بغتة ووصل إلى أطراف بلاده، والملك غافل عنه. فلما صح عنده خبره نهض إليه، ولم تكن عساكره وجيوشه مجتمعة، وخاف أن يصل إليه، فتوجه مع من حضره من جنده فشاهد جيشاً عَرَمْرَماً وعساكر عظيمة هائلة لا يطيق ملاقاته، فلاطفه ولاينه بكل كلام رقيق، وهاداه وجامله حتى استحى منه، ورجع عن بلاده وقد هادنه سنة لا يؤذيه، ولا يغير على بلاده، فلما انصرف عنه عائداً إلى بلاده ومملكته، رجعت عساكر الملك التي كانت غائبة وهرعت إليه من كل فج عميق، فرأى ما أعجبه، فتمنى أن لو نقض الهدنة بأمر يحدث ليجد السبيل إلى نقض العهد، وفسخ الهدنة التي بينه وبينه. فاتفق أن غلاماً لهذا الملك خالف عليه ونافق، وخرج عليه ثائراً، فسمع به ذلك الملك الآخر فجهز إليه جيشاً يتنصح بقتله إلى الملك فلقيه الجيش، فقتل الغلام فوصل الخبر إلى الملك بقتل غلامه الثائر عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم جيّش ذلك الجيش العظيم إلى الملك، وتقدمت رسائله إليه تقول له: فسخت ما بيني وبينك بقتل غلامي، فبعث إليه ما قتلته إلا في طاعتك، فقال له: يا هذا! ما أمرتك بقتله، ولا بد من لقائك واستبيح بلادك وقتلك. فلم يشعر ذلك الملك حتى وطيء بلاده،

---

(١) ٢٣: الأنبياء.

وقتله وملك بلاده، ووجد السبيل إلى ذلك كله بقتل الغلام الذي كان يتمنى قتله، فبلغ مناه، ونال ما تمناه، ومع ذلك حسن عند العقلاء النهوض إليه، وقتلهولم يلم عليه، ولا ذم في فعله بل أتته الوفود من الخلائق يهنونه بالظفر بذلك الملك وببلاده، ولم يخرج عن الحكمة، ولا عُدّ سفيهاً في فعله. ولتَعْرِضْ فعله الآن على عقلك، وعلى عقل جميع العقلاء. فافهم هذه الأمثلة، تتصور عندك كيفية إجراء أقدار الله في خلقه، وينقطع عنك شغب الخالين عن العلم، فليس من جهل كمن علم، وقال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾[3].

بل ما خلق الله السموات والأرضين وما بينها إلا لأجل العلم كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] لا على رأي القدرية الذين يقولون: إن الله تعالى إنما هو قادر على أفعاله دون أفعال خلقه، سددك الله وأرشدك. .

(١) ٩: الزمر.
(٢) ١١٤: طه.
(٣) ٢٨: فاطر.
(٤) ١٢: الطلاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الشيخ الفقيه الامام الأوحد ضياء الدين أبو الحسن شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدره غفر الله له وعفا عنه. ثم أني لما عرضت ما سنح به الخاطر في مسائل القدر وخلق أفعال البشر على الأمير الأجل المكرم الأمين نجم الدين أعلا الله في الفردوس الأعلى درجته، وأسبغ عليه في الدنيا والآخرة نعمته، وافق مقصوده ومرغوبه وأشار إلى أن أتبعه بانتزاع الآيات الكتابية الواردة في هذا الفن، على ترتيب سور القرآن سورةً سورةً، فلاحَ لي من عُلوّ همته وتوقد قريحته أنه لا يرضى بالاقتصار عن الاختصار دون التوغل في الغايات والتطلع إلى أقصى النهايات لغرض له لم أطّلِعْ عليه، ولم يوم إليه، فسارعت إلى تلقي أمره بالسمع والطاعة وبذلت في تلبية دعوته جهد الاستطاعة، وابتدأت بأم القرآن تيمّناً بها، لأنها المقصود تلاوتها في كل فرض ونفل وفرع وأصل، وهي بعد:

فاتحة الكتاب

فأقول ومنه العون والتوفيق والالهام والتسديد، قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(١) فاعلم أن وجه الدليل على القدرية والمعتزلة والامامية من هذه الآية أن إرادة الانسان كافية في صدور أفعاله منه كانت طاعة أو معصية، لأن الانسان عندهم خالق لأفعاله فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم، فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة، وكذلك

---

(١) ٦: الفاتحة.

تضرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم اليهود ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم النصارى.

فكما سألوه أن يهديهم، سألوه أن لا يضلّهم، وكذلك يَدْعون فيقولون ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [1] فتأمل راشداً هذه النكتة، فهي هادمة لأصولهم هاتكة لأستارهم.

سورة البقرة: من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [2] ثم بين سبحانه المانع لهم من الايمان، فقال تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٌ﴾ [3].

فاعتبروا ايها السامعون. وتعجبوا أيها المتفكرون من عقول القدرية فإن الختم [4] هو الطّبعُ. فمن أين لهم الايمان، ولو جهدوا.

وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون أو من يهديهم من بعد الله إذْ أضلّهم وأصمّهم وأعمى أبصارهم، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [5].

---

(١) ٨: آل عمران.

(٢) ٦: البقرة.

(٣) ٧: البقرة.

(٤) لسان العرب ١٢/ ١٦٣ مادة (خ ت م) والختم على القلب: أن لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنه طبع، وفي التنزيل العزيز: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ هو كقوله: طبع الله على قلوبهم، فلا تعقل ولا تعي شيئاً، قال أبو اسحق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء.

(٥) ٣٣: غافر.

وفيها قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الفاسقين﴾[1].

وفيها قوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] أي بقضاء الله ،فليت شعري ما يقول القدري في نسبة ذلك كله إلى الله الواحد القهار.

وفيها قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

تأمل ما دعا به هذان النبيان الكريمان على الله تعالى حيث تبرآ من الحول والقوة، وسألا ربهما أن يجعلهما مسلمين. والقدرية تزعم: أن كل واحد منهم قادر أن يجعل نفسه مسلماً مؤمناً إن شاء ذلك واختاره، ولا يفتقر في هذا الفعل إلى ربه. وكذلك سألا لذريتهما من بعدهما هذا السؤال وسألا التوبة أيضاً، وعندهم أن العبد إن شاء تاب، وإن شاء لم يتب وكأنهم يكفرون بقوله تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾[4]

(١) ٢٦: البقرة.
(٢) ١٠٢: البقرة.
(٣) ١٢٧، ١٢٨: البقرة.
(٤) ١١٨: التوبة.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

سورة آل عمران: ليس فيها شيء مما قدمنا عثرت عليه سوى الآية المذكورة في أم القرآن والله أعلم.

سورة النساء: فمما ورد فيها ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾[4].

فأنكر عليهم قولهم ورد عليهم فقال لنبيه عليه السلام ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[5].

فنفى عن رسول الله ﷺ ما أضافوه إليه من السيئة وقال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[5] يعني: القرآن كما قال ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾[6] أوردنا هذه الآية لأن

---

(١) ٢٩: التكوير.
(٢) ٢٩، ٣٠: الانسان.
(٣) ٢١٣: البقرة.
(٤) ٧٨: النساء.
(٥) ٧٨: النساء.
(٦) ٢٣: الزمر.

السنّة والقـدرية يتجاذبونهـا كل يدعي أنها حجة له على ما ذهب إليه. ووجه إحتجاجهم بها، أن القدرية يقولون: أنَّ الحسنة ها هنا هي الطاعة، والسيئة هي المعصية: قالوا: وقد نسب المعصية في قوله ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[1] إلى الانسان دون الله تعالى فهـذا وجه تعلقهم بها.

ووجه تعلق الآخرين منها، قوله تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[2] قالوا: فقد أضاف الحسنة والسيئة إلى نفسه دون خلقه. وهـذه الآية إنما يتعلق بها الجهال والعوام من الفريقيْن جميعاً لأنهم بنوا ذلك على أن السيئة هي المعصية ههنا وليست كذلك والله أعلم. والقدرية إن قالوا: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾[3] أي من طاعة ﴿ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[4] فليس هذا إعتقادهم لأن إعتقادهم الذي بنـوا عليه مذهبهـم أن الحسَنة فعلَ المحسن والسيئة فعل المسيء.

وأيضاً لو كان لهم فيها حجة لكان يقول: ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة، لأنه الفاعل للحسنة والسيئة جميعاً ولا يضافان إليه إلا بفعله لهما، لا يفعل غيره، وإنما الحسنة والسيئة في هذه الآية ما ذكره المفسرون للآية[5] قالوا: الحسنة ها هنا الخصب، والسيئة الجدب، وقيل: الحسنة السلامة والأمن، والسيئة: الأمراض والخوف، وقيل: الحسنة الغنى، والسيئـة الفقـر، وقيل: الحسنـة النعمـة والفتـح والغنيمة يوم بدر، والسيئة: البلية والشدة، وهي القتل والهزيمة يوم أحد.

قوله: ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾[6] يا محمد أي بسوء تدبيرك وهو قول ابن عباس رضي الله عنه.

---

(١) ٧٩: النساء.

(٢) ٧٨: النساء.

(٣) ٧٩: النساء.

(٤) ٧٩: النساء.

(٥) كذا في القرطبي ٥/ ٢٨٢: وفيه زيادة، وقيل الحسنة: السراء، والسيئة: الضراء.

(٦) القرطبي ٥/ ٢٨٢: هذه أقوال المفسرين وعلماء التأويل ـ ابن عباس وغيره ـ في الآية، وأنها =

وقيل: من عندك، أي بشؤمك الذي لحقنا بك.

قالوه على جهة التطير، قال الله تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[1] أي الشدة والرخاء والظفر والهزيمة من عند الله، أي بقضاء الله وقدره، ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[2] أي ما شأنهم لا يفقهون أن كلاً من عند الله.

ثم قال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[3] أي ما أصابك يا محمد من خصب ورخاء وصحة وسلامة، فبفضل الله عليك وإحسانه إليك، وما أصابك من جدب وشدة فبذنب أتيته عوقبت عليه. والخطاب للنبي عليه السلام، والمراد به أمته.

كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[4] وقد قيل: الخطاب للانسان، والمراد به الجنس كما قال: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾[5] (أي إن الناس لفي خسر) ألا تراه استثنى منهم فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[6]، ولا يستثني إلا من جملة أو جماعة، وعلى قول من قال: الحسنة الفتح والغنيمة يوم بدر، والسيئة ما أصابهم يوم أحد.

فكأنهم عوقبوا عند خلاف الرماة، الذين أمرهم رسول الله ﷺ أن يحموا

---

* نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عليهم قالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، قال ابن عباس: ومعنى ﴿ من عندك ﴾ أي بسوء تدبيرك. وقيل ﴿ من عندك ﴾ بشؤمك، كما ذكرنا، أي بشؤمك الذي لحقنا، قالوه على جهة التطير.

(١، ٢، ٣) ٧٨: النساء.

(٤) ٧٩: النساء.

(٥) ١، ٢: الطلاق.

(٦) ٢: العصر.

(٧) ٣: العصر.

ظهره، ولا يبرحوا من مكانهم فرأوا الهزيمة على قريش، والمسلمون يغنمـون أموالهم فتركوا مصافهم، فنظر خالد بن الوليد وكان مع الكفار يومئذ ظهر رسول الله ﷺ قد انكشف من الرماة، فأخذ سرية من الخيل ودار حتى صار خلف المسلمين، وحمل عليهم، ولم يكن مع رسول الله ﷺ من الرماة أحد إلا صاحب الراية حفظ وصيّة رسول الله ﷺ فوقف حتى استشهد مكانه، وقتـل يومئـذ من المسلمـين سبعـون، واستشهد حمزة عم رسول الله ﷺ وقتل من المشركين يوم بدر سبعون، وأسر سبعون فأنزل الله تعالى نظير هذه الآية وهو قوله تعالى ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ ﴾[1] يعني يوم أحد: ﴿ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾[2] يعني يوم بدر ﴿ قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾[3].

ولا يجوز أن تكون الحسنة ها هنا الطاعة. والسيئة المعصية كما قالت القدرية، إذ لو كان كما قالوا: لقال: ما أصبت كما قدمنا..

إذ هو عنه الفعل عندهم والكسب عندنا، وإنما تكون الحسنة الطاعة والسيئة المعصية، في نحو قوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾[4].

وأما في هذه الآية فهي كما تقدم شرحنا له: من الخصب والجـدب والرخـاء والشدة، على نحو ما جاء في الآية التي في الأعراف وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾[5] أي بالجدب سنة بعد سنة، حبس المطر عنهم فنقصت ثمارهم، وغلت أسعارهم، ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾[6] أي يتشاءمون بهم. ويقولون: هذا من أجل اتّباعنا

(١، ٢، ٣) ١٦٥: آل عمران.
(٤) ١٦٠: الأنعام.
(٥) ١٣٠: الأعراف. (٦) ١٣١: الأعراف.

لك وطاعتنا اياك على ما كانت العرب عليه من زجر الطير تتشاءم بالبارح[1]، وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتتبرك بالسانح[2] وهو الذي يأتي من جهة اليمين، فرد الله عليهم بقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[3] يعني أن طائر البركة وطائر الشؤم من الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى لا صنع فيه لمخلوق.

فكذلك قوله تعالى فيما أخبر عنهم أنهم يضيفونه إلى النبي ﷺ حيث قال ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[4].

كما قال ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[5] وكما قال: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[6] أي بقضاء الله وقدره وعلمه أيضاً. وآيات الكتاب يشهد بعضها لبعض، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشك أن كل شيء بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته، كما قال تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[7].

وقال ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[8] وشر الشرور إبليس اللعين، والله تعالى خلقه وقد سلّطه على خلقه وتفضل سبحانه على من شاء من خلقه بالعصمة والهداية والتوفيق والرشاد.

(١، ٢) لسان العرب ٢/ ٤١١ مادة (ب ر ح) والبارح: ما مر من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف، والسانح: ما مر بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به لأنه أمكن للرمي والصيد.

(٣، ٥) ١٣١: الأعراف.

(٤) ٧٨: النساء.

(٦) ١٦٦: آل عمران.

(٧) ٣٥: الأنبياء.

(٨) ١١: الرعد.

ولقد ورد في الأخبار أن قدرياً حضر عند ابن عباس رضي الله عنه وهو يتكلم في تفسير القرآن والناس يسألونه، فقال: يا ابن عباس لي مولى هو قادر على هدايتي وعصمتي وتوفيقي وإرشادي، فمنعني الهداية والعصمة والتوفيق والارشاد، أليس قد ظلمني وأساء إليّ؟ فتفطّن له ابن عباس، فقال موافقاً لجعفر الصادق رضي الله عنهما في جوابه للقدري الذي قال له تعالى الله أن يخلق الفحشاء.. الخبر الذي قدمناه في صدر الكتاب[1]: يا هذا إن منعك مولاك الهداية والعصمة والتوفيق والارشاد وهي حقٌ وجب لك فقد ظلم وأساء، وإن كانت الهداية والارشاد والعصمة والتوفيق حقاً له، فإنه يختص برحمته من يشاء. وفيها ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[2] ولا أحد يضل نفسه ولا يضله غيره من المخلوقين، وإنما المضل الهادي هو الله وحده، دون جميع خلقه من الانس والجن والملائكة والشياطين وسائر الخلق أجمعين، ومن نسب إليه منهم ضلال فإنما نسب إليه مجازاً لا حقيقة إذ كان هو السبب الظاهر للخلق كما قال تعالى

﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾[3].

وفيها ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ[4]﴾.

سورة المائدة: من ذلك قوله تعالى ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا[5]﴾. جاء في التفسير[6]: إضلاله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ

---

(١) راجع صفحة ٣١ من هذا الكتاب.
(٢) ٨٨: النساء.
(٣) ٨٥: طه.
(٤) ١١٣: النساء.
(٥) ٤١: المائدة.
(٦) القرطبي ٦/١٨٢: أي ضلالته في الدنيا وعقوبته في الآخرة.

أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ (١) ﴾ جاء في التفسير(٢) يطهّر قلوبهم : أي بالاسلام لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

وفيها ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ .

سورة الأنعام: فيها آيات بينات دون السور التي تذكر ،والمذكورات قبل. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤) ﴾ جاء في التفسير(٥): ولو شاء الله لخلقهم مؤمنين رداً على القدرية. ثم قال ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ (٦) ﴾ جاء في التفسير(٧) : إنما يستجيب لدعائك يا محمد الذين فتح الله أسماعهم إلى سماع الحق ، فيقبلون ما يسمعونه وهم المؤمنون ﴿ **والموتى**

---

(١) ٤١ : المائدة .

(٢) القرطبي ٦/١٨٢ : بيان منه عز وجل أنه قضى عليهم بالكفر ، ودلت الآية على أن الضلال بمشيئته تعالى رداً على من قال خلاف ذلك .

(٣) ٤٨ : المائدة .

(٤) ٣٥ : الأنعام .

(٥) القرطبي ٦/٤١٨ أي لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه ، بين تعالى أن كفرهم بمشيئة الله رداً على القدرية .

(٦) ٣٦ : الأنعام .

(٧) القرطبي ٦/٤١٨ : أي سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون .

يبعثهم الله ﴾ أي والكفار [1] الـذين هم في عدد الموتى لأنهم لا يسمعون ولا يعقلون لإعراضهم عن سماع الحق قلت: قال الله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ [2] ﴾ لأنه سبحانه خلقهم كافرين وكتب عليهم أنهم لا يؤمنون.

وقال الحسن ومجاهد في قوله تعالى: ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ المعنى : أن الكفار مثل الموتى، والله يوفق من يشاء إلى الايمان بالله ورسوله، فيكون ذلك بعثهم من موتهم.

قلت: وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ [3] ﴾ . شبّه الكفر بالموت والايمان بالحياة، كما شبه الكافر بالظلمات والايمان بالنور في قوله تعالى: ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ [4] ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا [5] ﴾ والخارج منها هو الذي بعثه الله من موته بالكفر إلى حياته بالايمان ، فافهم ذلك كله فهو بيّن كما ترى.

وفيها قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ مَن يَشَإِ

---

(١) القرطبي ٦/٤١٨ : وهم الكفار، عن الحسن ومجاهد، أي هم بمنزلة الموتى في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة.

(٢) ٢٣ : الأنفال.

(٣) ٢٤ : الأنفال:

(٤) ١ : إبراهيم.

(٥) ١٢٢ : الأنعام.

﴿ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١) ﴾ وهذا كما تقدم شرحه في ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ(٢)﴾ إلى آخر السورة وكما تقدم في الآية التي قبل هذه من ذكر الظلمات، وذكر من أصمَّهُ الله عن سماع الخير. فاعلمه.

وفيها قوله تعالى ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(٣) ﴾.

وفي قوله ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ (٤) ﴾ كفاية وبيان.

ثم قال: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (٥) ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) ٣٩: الأنعام.

(٢) ٦: الفاتحة.

(٣) ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨: الأنعام.

(٤) ١٠٨: الأنعام.

(٥) ١٠٩، ١١٠: الأنعام.

كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١) ﴾

ثم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (٢) ﴾.

وفيها ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا (٣) ﴾ إحتججت على إمامي بهذه الآية. فقال: من هو الذي يشرح صدره للاسلام؟ ومن هو الذي يجعل صدره ضيقاً حرجاً؟ قلت: هو الله تعالى، ألا تراه يقول في أول الآية: ﴿ فمن يرد الله ﴾ فقال: ليس الأمر كما قلت. فقلت له: فمن الذي يفعل ذلك؟ قال: رأيت الضمير الذي في ﴿ يشرح ﴾ وفي ﴿ يجعل ﴾، هو يعود على من، وهو الذي يفعل الشرح والضيق، ولا يعود الضمير على الله كما زعمت. فقلت له: فهب أنك أعدت الضمير على « من » دون الله حتى يصح مذهبك، فما تصنع في قوله تعالى ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (٤) ﴾، ليس ها هنا إسم مع الله يمكنك أن تموه به على الغر الجهول والغافل الذهول، فبهت، ولم يحر جواباً، ثم قلت له: أجب عما ألزمتك أو تب إلى الله من هذا الاعتقاد الفاسد، فقال: حتى أسئل عنه. ومرّت الليالي والأيام، ووجدته مراراً ولم يجب بشيء، وهذه عادة من ينزه الله في كتابه.

---

(١) ١٠٩، ١١٠: الأنعام.

(٢) ١١٢: الأنعام.

(٣) ١٢٥: الأنعام.

(٤) ٧: البقرة.

فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[1].

فقد أوردنا له آية لا تتشابه عليه، وليس فيها ضمير ولا ضميران يلتبس أحدهما بالآخر، وتتجاذب المتنازعان طرفيهما، ولا يُشرك الرّب في تسمية بالله أحد من خلقه.

كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا[2]﴾.

وفيها ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[3].

ثم لم يقنع جل وعلا بهذا الإقرار منهم حيث جعلوا إشراكهم بالله منوطاً بمشيئة الله سبحانه حتى أقام بذلك الحجة عليهم وعلى القدرية معهم. فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ[4]﴾.

---

(١) ٧: آل عمران.

(٢) ٦٥: مريم.

(٣) ١٤٨: الأنعام.

(٤) ١٤٩: الأنعام.

سورة الأعراف: فيها قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ[1]﴾ فإبليس أحسن إعتقاداً من القدرية، حيث نسب إغواءه إلى بارئه وخالقه دون نفسه، والقدرية تقول: إن ضللت فأنا الذي أضل نفسي، وأنا خالق لفعلي وإغوائي وضلالي. وقد أبا ذلك مقدمهم في الضلال والاضلال إبليس اللعين، ونسب الاغواء إلى من خلقه فيه وزيّنه له حتى غوى وأغوى وضل وأضلّ وقد أخبر الله عن اللعين الرجيم بأن ليس له من الأمر شيء، حيث قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[2] ﴾.

ثم قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ[3] ﴾.

وكما قال تعالى في سورة البقرة ما ذكرناه عن هاروت وماروت إذ قال سبحانه: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ[4] ﴾.

وفيها قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ[5] ﴾.

---

(١) ١٦: الأعراف.

(٢) ٩: المجادلة.

(٣) ١٠: المجادلة.

(٤) ١٠٢: البقرة.

(٥) ٤٣: الأعراف.

وفيها قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا (١)﴾.

وقد تقدم ذكرها في صدر الكتاب.

وفي هذه الآية نكتة تهدم أصل المبتدعة والامامية وتحز غلاصم المعتزلة والقدرية، وهي أنهم يقولون: أن إرادة الله نفس أمره، وأمره نفس إرادته وفرعوا عليه أنه لا يأمر إلا ما يشاء ويريد ولا يريد من خلقه إلا ما أمرهم به وشاءه لهم، واحتجوا بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ (٢)﴾ فلا يريدها، فخرج من ذلك كله أن الله لم يرد معصية العصاة ولا كفر الكفار، هذه قاعدة مذهبهم، وقد أكذبهم الله تعالى على ألسنة أنبيائه عامة وعلى لسان شعيب في هذه الآية خاصة، في قوله تعالى عنهم حيث قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا (٣)﴾ وملتهم الكفر وقد علقه بمشيئته سبحانه كما ترى.

ومنها قوله تعالى ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن

---

(١) ٨٨، ٨٩: الأعراف.

(٢) ٢٨: الأعراف.

(٣) ٨٨، ٨٩: الأعراف..

﴿ ... تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ(١) ﴾.

وفيها قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ(٢) ﴾ وقد تقدمت هذه الآية في صدر الكتاب.

وفيها ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ(٣) ﴾.

سورة الأنفال: قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٤) ﴾.

هذه الآية وإن أحتج بها بعض الأصحاب على خلق أفعال العباد فقد شرحها الفقيه أبو القاسم في كتاب « الاملاء » وقال في آخر كلامه: إنها واردة في معاتبة المسلمين وأعلمهم أنه سبحانه الذي أمدهم بالملائكة فقتل الله المشركين بهم، وأوصلوا رمي النبي بالحصباء إلى أعينهم، فهزمهم الله ورماهم بالملائكة، على نحو قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ(٥) ﴾.

---

(١) ١٥٥: الأعراف.
(٢) ١٧٨، ١٧٩: الأعراف.
(٣) ١٨٦: الأعراف.
(٤) ١٧: الأنفال.
(٥) ١٤: التوبة.

وكما قال الشاعر:

رمـى بك الله برجيهـا فهدّمها ولـو رمـى بك غير الله لم يصب

وفيها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ (١) ﴾أمرهم بالاستجابة لله وللرسول وأعلمهم أنه يحول بين المرء وقلبه ، فمتى يستجيب إذن؟ وفي التنزيل: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٢) ﴾. قيل في التوراة: وسأُقسّي قلبه فلا يؤمن.

سورة التوبة: فيها قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (٣) ﴾.

وفيها يقول في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ، فذمّهم الله حيث تخلفوا عنه في الغزاة.

وعند القدرية أنهم مستحقون للذم لأنهم قعدوا عن رسول الله ﷺ وعن نصرته، فما الحيلة في قوم خلق الله فيهم التثبيط والقعود عن رسول الله ﷺ فيجب على قول هذا عند القدرية أن يعذروهم أيضاً لأن الله خلق فيهم القعود وزيّنه لهم، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ (٤) ﴾ ولو حمل الأمر في قوله

---

٢٤ : الأنفال.

(٢) ٤٣ ، ٤٤ : طه.

(٣) ١٤ : التوبة.

(٤) ٤٦ : التوبة.

﴿ اقعدوا ﴾ على ظاهره لكانوا مأمورين بالقعود وكانوا طائعين وممدوحين بامتثال الأمر ، ولكن ليس أمرهم سبحانه بالقعود وإنما خلق فيهم القعود . وكذلك قوله ﴿ كره الله انبعاثهم ﴾ وقوله ﴿ فثبطهم ﴾ . هو الفاعل لذلك كله، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[1] ﴾.

والقدرية ما عرفوا الله حق معرفته ولا قدروا الله حق قَدْرِه فبعداً لهم وسحقاً فما أجهلهم بصفات الله خالقهم وما أنكرهم لأفعال ربهم ومالكهم. فسبحان الله عما يصفون وجلّ جلاله عما يأفكون.

سورة يونس عليه السلام: قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ[2] ﴾.

وقالت القدرية من أراد أن يؤمن آمن لأن الحول والقوة والاختيار بيده.

وقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[3] ﴾ ولم يبق بعد هذا للقدرية كلام وهذا حديثه مع سيد الأولين والآخرين لحرصه على إيمانهم، أخبره جل جلاله ان ما هذا إليك ولا إليهم إنما هو معقود بمشيئة الله تعالى، ومنوط بإرادته، كما قال له في موضع آخر: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ[4] ﴾.

وكما قال له لما عظم عليه إعراضهم عنه : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) ٩٦: الصافات.

(٢) ٩٦، ٩٧: يونس.

(٣) ٩٩: يونس.

(٤) ٨: فاطر.

﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

وفيها يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ[2]﴾.

والقدرية ترد على الله قوله هذا، وتقول: ولو أراد أن يؤمن لآمن والخير بيده دون بارئه، فسبحان الله عما يقولون وتعالى علواً كبيراً.

سورة هود عليه السلام: يقول فيها في قصة نوح عليه السلام:

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[3]﴾.

وفيها يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ[4]﴾.

تأمل هذه الآية، والتفت إلى قَسَمِهِ سبحانه ﴿**لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ فليت شعري لو اتفق الناس وتراضوا على أن يؤمنوا كما زعم

---

(١) ٣٥: الأنعام.

(٢) ١٠٠: يونس.

(٣) ٣٢ ٣٣، ٣٤: هود

(٤) ١١٨، ١١٩: هود.

القدرية والمعتزلة أن الانسان مالك لاختياره، فإن شاء آمن وإن شاء كفر وإن شاء أطاع وإن شاء عصى، فما يفعلون بقسم الله سبحانه، أكان الله يحنث في يمينه عندهم، أو كان يوصف بالكذب في خبره على مقتضى مذهبهم، وهو مستحيل في حقه جل ذلك الجلال أن توزن صفاته بميزان أهل القدر والاعتزال أو يضطروا إلى قول أهل الحق، فيقولون لا بد أن يصدق خبره، ويبر قسمه، فيؤمن ويطيع من أراد إيمانه وطاعته، ويكفر ويعصى من أراد كفره ومعصيته، فتتم إذن كلمته بالثواب والعقاب، ويملأ الجنة ممن سبقت له من الله الحسنى وجهنم ممن حقت عليه كلمة العذاب ويضل الله من هو مسرف مرتاب.

سورة يوسف عليه السلام: قوله تعالى: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١) ﴾.

وقال فيها: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢) ﴾.

فيا لله ويا للعجب، أيعجز الله تعالى أن يصرف الزنا عن كل من هم به كما صرفه عن يوسف، أم هو قادر على ذلك فَسَوْءَةٌ لهم ما أجهلهم بصفات الله، أرادوا أن يصفوا ربهم بالعدل فوصفوه بالعجز.

وقال في نقيض ذلك: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (٣) ﴾ ولما دعاه الملك وأرسل إليه رسولاً ليخرجه من السجن ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ

---

(١) ٣٣، ٣٤: يوسف.

(٢) ٢٤: يوسف.

(٣) ١١: الرعد.

أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (١) ﴾.

جاء في القصة أن جبريل عليه السلام قال له: يا يوسف ما لك لم تجب لما دعاك الملك لتخرج من السجن؟ قال يوسف عليه السلام: أردت أن أبرأ عند الملك قبل لقائه وهو مضمون، قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ (٢) ﴾. فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف ولا جبر، هممت حتى عصمك الله، فعندها قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي (٣) ﴾.

ومثله في القرآن كثير، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ (٤) ﴾.

سورة الرعد: فيها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ (٥) ﴾.

ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦). القدرية تزعم في إعتقادها أن لله شركاء من الخلق كثيراً خلقوا كخلقه. بيان ذلك أنهم يعتقدون أن

---

(١) ٥٠: يوسف.
(٢) ٥٢: يوسف.
(٣) ٥٣: يوسف.
(٤) ١١٨، ١١٩: هود.
(٥) ١٦: الرعد.
(٦) ١٦: القهار.

أفعال العباد خلق لهم أنفردوا بها دون باريء النسم، وموجد الخلق بعد العدم، ويزعمون أن الخالقين كثير ويحتجون بقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ (١) ﴾.

ويقولون لولا أن ثم خالقين كثيراً وأن الله أحسنهم خلقاً لما قال فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ (٢) ﴾. وذلك أن حركة الارتعاش في يد العبد هم موافقون لنا أنها خلق الله تعالى دون العبد لأنها واقعة بقدرة الله وإرادته، ولا قدرة للعبد عليها ولا إرادة، فإذا أراد العبد أن يحرك يده باختياره وإرادته حركة تشبه الارتعاش قالوا: هذه خلق للعبد لأنها وقعت بقدرته وإرادته، فقد ﴿ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ (٢) ﴾ فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٣) ﴾ بمعنى هو المنفرد بخلق جميع الأجسام والأعراض كلها، وخالق أفعال خلقه كما قال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٤) ﴾ ثم قال: ﴿ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ (٥) ﴾. واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، قهار لجميع خلقه داخلون تحت قدرته، ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ (٥) ﴾ ومقهورون في قبضته وتحت سلطانه قهر اقتدارٍ لا إله إلا هو الواحد القهار.

واعلم أن هؤلاء الذين لم يؤتوا إلا من قلة الفهم وعمي البصائر ظنوا أن الخلق لا يكون إلا بمعنى الإختراع والايجاد والابتداع، تعالى الله أن يكون معه شريك في ملكه وسلطانه وجبروته، أو يكون أحد خالقاً لشيء سواه. وإنما الخلق في هذه الآية

(١) ١٤: المؤمنون.
(٢) ١٦: الرعد.
(٣) ١٦: الرعد.
(٤) ٩٦: الصافات.
(٥) ٦٧: الزمر.

بمعنى التقدير، ولا يكون التقدير إلا في الأجسام، وأول الآية يدل عليه حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا[1] ﴾ والتقدير جارٍ في هذا كله، كما قال هذا المعنى مفسراً في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ[2] ﴾.

ثم قال: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ[3] ﴾ على قراءة نافع والكسائي بالتشديد فاعلم[4].

ثـم قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ[5]﴾ أي المقدرين، وليس كل صانع إذا قدّر في صنعته تقديراً يقـع ذلك على وفـق تقـديره وإرادته، يتبيّن لك ذلك من تقدير كل صانع في صنعته، وإنما يأتي على وفق تقدير الله العظيم الخبير وهذا المعنى معروف في اللغة.

قال الشاعر:

ولأنـت تفـري ما خلقـت وبعـ ـض القـوم يخلـق ثم لا يفري

وقال آخر:

ولا ثبـط بأيدي الخالقـين ولا أيدي الخوالـق إلا جيد الأدم

---

(١) ١٢، ١٣، ١٤: المؤمنون.

(٢) ٢٠، ٢١، ٢٢: المرسلات.

(٣) ٢٣: المرسلات.

(٤) القرطبي ٩/ ١٦٠: قرأ نافع والكسائي ﴿ فقدّرنا ﴾ بالتشديد، وخفف الباقون، وهما لغتان بمعنى قاله الكسائي والفراء والقُتَبي. قال القُتَبي: قَدَرْنا بمعنى قدّرنا مشددة.

(٥) ١٤: المؤمنون.

وفي كلام الحجاج بن يوسف على المنبر يهدد أهل العراق حين قدم أميراً عليهم في خطبته المشهورة التي يقول فيها: إني والله ما أقول إلا وفيت ولا أهمّ إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت أي لا أقدر إلا قطعت.

وفيها يقول الله سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا[1] ﴾.

وفيها يقول: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ[2] ﴾.

سورة إبراهيم عليه السلام: قوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾[3] ﴾.

هذه آيات بينات في الرد على القدرية، من تأملها علم مضمونها. قوله تعالى: ﴿ **لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾، أي من ظلمات الكفر إلى نور

---

(١) ٣١: الرعد.

(٢) ٣٣: الرعد.

(٣) ١، ٢، ٣، ٤: إبراهيم.

الايمان، وذلك بإذن ربهم، أي بتوفيقه وهدايته. وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ[1] ﴾ أي بتوفيق الله، وقيل بقضائه، فلا تجهد نفسك يا محمد في طلب هدايتهم. ثم قال من بعد: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ[2] ﴾ أي عن قوم سبق لهم من الله الشقاء، وانظروا إلى قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ[3] ﴾ أنظر إلى أسباب الهداية كيف مهدها لهم إرسال الرسل، وانزال الكتب، وكونها بلسان المرسل إليهم، وكونه سبحانه قصد بذلك التبيين لهم، ثم بعد ذلك كله أضل من شاء وهدى من شاء.

كما قال تعالى فيما أوردناه متقدماً: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ[4] ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ[5] ﴾.

ثم قال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ[6] ﴾ فاعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟

(١) ١٠٠: يونس.
(٢) ١٠١: يونس.
(٣) ٤: إبراهيم.
(٤) ٢٥: يونس.
(٥) ٢٤: الأنفال.
(٦) ٢٤: الأنفال.

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [1] ﴾.

وقد تقدم القول في هذه الآية: فانظر إلى أهل النار كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دركات النار.

كما قالوا في موضع آخر: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [2] ﴾.

وفي موضع آخر: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ [3] ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ [4] ﴾.

فاعترافهم في دركات لظى بالحق ليس بنافع، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ [5] ﴾.

---

(١) ٢١: إبراهيم.
(٢) ١٢: السجدة.
(٣) ٨، ٩، ١٠: الملك.
(٤) ١١: الملك.
(٥) ١٠٢: التوبة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ[1] ﴾.

ثم قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم[2] ﴾. وصدق إبليس في هذا القول كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ[3] ﴾.

فمن عصمه الله من الشيطان لم يجعل له عليهم سلطاناً، ومن خلق الله فيه الغواية تبعه كما قال إلا من اتبعك من الغاوين.

وفيها: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ[4] ﴾.

وفيها: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ[5] ﴾.

كما قدمنا قوله في البقرة حيث قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ[6] ﴾ الآية.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي[7] ﴾.

---

(١) ٢٢: إبراهيم.
(٢) ٢٢: إبراهيم.
(٣) ٤٢: الحجر.
(٤) ٢٧: إبراهيم.
(٥) ٣٥: إبراهيم.
(٦) ١٢٨: البقرة.
(٧) ٤٠: إبراهيم.

فانظر إلى هذا النبي المكرم على الله، وهو خليله دون خلقه، كيف يتضرع إلى مولاه، فمرةً يقول: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1] ومرةً يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ[2]﴾.

ومرةً يقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي[3]﴾ على نحو قوله فيما قدمناه ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ[4]﴾.

وفي هذه السورة ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ[5]﴾ أي يضل من يشاء فلا يوفّقه، ويهدي من يشاء فيوفقه، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ[6]﴾ أي لا يوفّقهم في الحياة الدنيا إلى الايمان. هكذا جاء في تفسير هذه الآية.

سورة الحجر: قوله سبحانه حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ[7]﴾. قال لأغوينهن كما أغويتني فاعلم.

(١) ١٢٨: البقرة.
(٢) ٣٥: إبراهيم.
(٣) ٤٠: إبراهيم.
(٤) ٦، ٧: الفاتحة.
(٥) ٢٧: إبراهيم.
(٦) ٢٧: إبراهيم.
(٧) ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢: الحجر.

سورة النحل: قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ [1] ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: وعلى الله بيان الهدى من الضلال ولو شاء لهداكم إلى الهدى أجمعين [2]، وهو الصراط المستقيم. وفيها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ [3] ﴾.

أنظر إلى قوله تعالى: ﴿ **إن تحرص على هداهم** ﴾ والنبي ﷺ أفصح من نطق بالضاد وهو سيد الأولين والآخرين وأبلغ الواعظين وصاحب المعجزات والآيات والبراهين، واشتد حرصه على إيمان من لم يؤمن من قومه، وذهبت نفسه عليهم حسرات والله تعالى يقول له: ﴿ **فإن الله لا يهدي من يضل** ﴾ وأكده بقوله: ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾. كما قال: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا [4] ﴾ و قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا [5] ﴾.

وفي هذه السورة ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن

(١) ٩: النحل.
(٢) القرطبي ١٠/٨٢ : بين أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية ، ويرد على القدرية ومن وافقها كما تقدم.
(٣) ٣٦، ٣٧: النحل.
(٤) ١٧ : الكهف.
(٥) ٣١: الرعد.

﴿ يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [1] ﴾.

سورة بني إسرائيل[2] : فيها قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ [3] ﴾.

وفيها قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا [4] ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ [5] ﴾.

كما قال تعالى فيما أوردناه في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ [6] ﴾ . فلو اجتمع أهل السموات وأهل الأرض من حملة العرش وجميع المقربين، والملائكة والناس أجمعين، والأنبياء والرسل عليهم السلام أن يهدوا من أضل الله فلا يستطيعون، كما أنهم لو اجتمعوا على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك، فمنه الخير والشر والنفع والضر ومنه الايمان والكفر ومنه التوفيق والخذلان، لا إله إلا هو الواحد القهار.

وفيها: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ ﴾ يعني الكفار ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ

---

(١) ٩٣: النحل.

(٢) وتسمى: الاسراء.

(٣) ٩٧: الاسراء.

(٤) ٦١: الاسراء.

(٥) ٦٥: الاسراء.

(٦) ٣٣، ٣٤: يوسف.

كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (١) ﴾ . من تدبّر هذه الآيات وتفكر فيها عرف سر القدر إن شاء الله ، فلا أجلّ من المصطفى ولا أعلى ولا أسنى ، ونرى هذه السياسة ، وهذا الناموس ، وهذه الحكمة ، وهذا الجلال ، وهذا السلطان ، وهذا الجبروت ، وهذا الملك ، وهذا الملكوت أظهر سرّ قدره في خير خلقه.

فما تقول القدرية في جُهَّال الخلق وعوامِّهم ، كيف يحكمون عليهم أنهم مالكون لأنفسهم ، وخالقون لأفعالهم ، ومستغنون في هدايتهم عن مالكهم وبارئهم ، يفعلون ما يشاءون دون مشيئة إلٰهم فيخالفون أهل الحق أجمعين ، ويشاءون وإن لم يشأ الله رب العالمين خلافاً لآيات الكتاب المبين ، حيث نطق بقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٣).

سورة الكهف: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٤) ﴾.

أنظر كيف خلق لهم الزينة في الدنيا ، ليختبرهم ويصيدهم بها وبلذاتها وشهواتها وزبرجها وجبرتها ، حتى لقد تفكر في أمرها وحبائلها بعض العارفين فبكى وقال: كيف الحيلة وقد نصب لنا الشرك ليصيدنا فالله المستعان على ما أبلانا. وأنشد الناظر في هذا المعنى وأحسن فيما تغنى:

---

(١) ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ : الاسراء.
(٢) ٢٩ : التكوير.
(٣) ٣٠ : الانسان.
(٤) ٧ : الكهف.

نصبـوا اللحـم للبـزاة علـى ذروتـي عَدَنْ
ثم لامـوا البُـزاة أن جعلـوا فيهـم الرَّسَنْ
أبـرزوا وجهـك المليح ثم لامـوا من افْتَتَنْ
لو أرادوا صلاحنـا نقّبـوا وَجْهَـك الحَسَنْ

وأنشد الآخر:

هي الـدنيا إذا اكتملـت وطـاب نعيمَهـا قَتَلَتْ
فلا تركن لزَهْرَتِهَـا فباللـذَّاتِ قد شُغِلَتْ
وكن منهـا علـى حذر وخف منهـا إذا اعْتَدَلَتْ

وتفكر الآخر فيما سبق به القضاء والقدر، وبكى على ما حكم به المولى وسطر، وقال: كيف الحيلة في إرضاء من غضب في الأزل، من غير ما سبق ها هنا تسكب العبرات، وتذوب بالمهج بالحسرات، وتجري الدموع الجاريات على ما فات وسبقت به السابقات.

وفيها قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا [1] ﴾ وفيها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا [2] ﴾.

وهذا بيّن الوضوح لمن أراد الرشاد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[3].

(١) ١٧ : الكهف.
(٢) ٥٧ : الكهف.
(٣) ٣٣ : غافر.

سورة الأنبياء عليهم السلام: فيها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ [1] ﴾.

فطره الله على الرشد والاسترشاد، حتى ساقه الدليل إلى معرفة فاطر السموات وخالق العباد، حتى لقد تعرض سائل لبعض السادة من العارفين في مجلس معقود، ومشهد مشهود، فقال له: كيف يقول الله تعالى:

﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾ إبراهيم عليه السلام رأى كوكباً[2] فقال هذا ربي ثم تبيّن له أنه ليس بإله ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ [3] ﴾ فتبيّن له أنه ليس بإله، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ [4] ﴾.

وهذا ما أشرنا إليه من الرشد الذي أتاه الله من قبل، أي في بدء أمره، فأجابه العارف بجواب لم يصل إليه فهمه؛ فقال السائل: أعد علي الجواب: فأعاد عليه ولكن بغير تلك العبارة فلم يفهم كلامه. فقال له بعبارة أخرى فلم يبلغه فهمه. فقال له العارف: ما الذي قرأت من العلوم حتى أخاطبك على قدر فهمك، فقد قال الحكيم: «كِلْ لكلِ أحدٍ بمكيالِ علمه، وزن له بميزان فهمه وإلا وقع التناحر والانكار لتفاوت المعيار» فقال له السائل لم أقرأ علماً ولا حصلت أدباً. فقال: فما تحسن من الصنائع والتجارات؟ قال: ولا حاولت قط صناعة ولا اتخذت تجارة فقال له: يا هذا أتحسن نوعاً من اللعب؟ فقال له: أنا أحسن لعب الشطرنج، فقال

---

(١) ٥١: الأنبياء.

(٢) مثيل هذا قوله تعالى: ﴿ **فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين** ﴾ ٧٦: الأنعام.

(٣) ٧٧: الأنعام.

(٤) ٧٨: الأنعام.

له باسم الله فاسمع إذن واصغ إلى مثالي، إعلم يا هذا أن الله سبحانه بسط لابراهيم خليله رقعة القدرة، وصف عليها ميادين الحكمة، فبرز البَيْدقُ وهو كوكبُ سماء الدَّسْت، فقال له الخليل: يا هذا كيف سيرك وكيف أخذك؟ فقال: أسير معتدلاً وأخذُ مُعْوَجاً، فقال: لا أحب الآفلين، فبرز الفرزانُ وهو قمر سماء الدَّسْت، فقال له الخليل: يا هذا كيف سيرك وكيف أخذك؟ فقال: أسير معوجاً وأخذ مُعْوَجاً، فقال عليه السلام لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فبرزت الشاة وهي شمس سماء الدَّسْت، فقال الخليل عليه السلام: يا هذه كيف سيرك وكيف أخذك؟ فقالت: أَلمثلي يقال له هذا أنا أسير كيف شئت وأخذ كيف شئت، فقال الخليل عليه السلام: هذا ربي هذا أكبر ثم قال: يا هذه أتعترض لك الآفات؟قالت: نعم أحضر في بيت وأضرب شَاهْ مات، فعند ذلك قال الخليل: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[(١)] ﴾ فهذا النظر الصحيح أدركه الخليل برشده الذي آتاه الله من قبل، وقصَّه ووصفه الرب بقوله ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ[(٢)] ﴾.

سورة الحج: فيها قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ[(٣)] ﴾.

وعلق وجود الهداية بإرادته سبحانه فهو المهدي لا هادي سواه.

سورة النور: فيها قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[(٤)] ﴾.

---

(١) ٧٩: الأنعام.
(٢) ٨٣: الأنعام.
(٣) ١٦: الحج.
(٤) ٢١: النور.

الغوث الغوث من قوم يعتقدون أن الله جل جلاله يكذب في التبجح في هذه الآية والله المستعان عليهم وإليه مرجعهم ومآلهم وعليه عقابهم ونكالهم.

وفيهـا: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ (١)﴾ أي هادي أهل السموات والأرض(٢).

ثم ضرب المثال لنوره جل ذلك الجلال فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ (٣)﴾. لما مثل إيمان المؤمنين وهدايته بالنور، كذلك مثل أعمال الكفار بالظلمات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٤)﴾.

ثم قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٥)﴾.

---

(١) ٣٥: النور.

(٢) القرطبي ٢٥٧/١٢: قال ابن عباس وأنس: المعنى الله هادي السموات والأرض.

(٣) ٣٥: النور.

(٤) ٣٩: النور.

(٥) ٤٠: النور.

مثّل الله سبحانه في كتابه الايمان بالنور، والكفر بالظلمة، ومثل الايمان بالحياة، والكفر بالموت، كما تقدم شرحه.

سورة القصص: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ [1]﴾.

وقال في نقيض هؤلاء الأئمة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ [2]﴾.

هو جلّ وعلا جعل هؤلاء بهذه الصفات، وهؤلاء بنقيض تلك الصفات. ليتحقق أنه رب الأرباب وخالق الأرضين والسموات. وانظر إلى هذه الحكمة الالهية، والمشيئة الربانية، قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً [3]﴾. واللعنة: الطردُ والابعاد عن مقدمات السعادة، وعن أسباب السلامة، ومع ذلك فقد علم سبحانه، وعلمه قديم لا يتبدل ولا يتغير، إن فرعون وملأه وأعوانه وآله لا يؤمنون لأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون، واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين، ومع ذلك كله أرسل الله إلى فرعون موسى وأخاه هارون، وقال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ [4]﴾.

---

(١) ٤١: القصص.

(٢) ٧٣: الأنبياء.

(٣) ٤١، ٤٢: القصص.

(٤) ٤٣، ٤٤: طه.

وقد شرحناه فيما تقدم، فانظر إلى هذا الجلال الأعظم، والسلطان الأهيب، منه المكر والاستدراج، والهداية والاضلال، والكفر والايمان، والطاعة والعصيان، وبهذه الأوصاف يُتحقق أنه الاله الموجود، والرب المعبود، والمالك المقصود، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ[1] ﴾. فمن قاس الاله على المألوه، والرب على المربوب، والخالق على المخلوق، والمالك على المملوك، والآمر على المأمور، والناهي على المنهي، والمكلِفَ على المكلَّفِ فهو تائه في بحر الضلال، وخارج عن حزب العقلاء، داخل في غمار الجهال الأغبياء، وعمي عن إدراك الصواب، ذاهل عن صفات ذي الجلال، قاصر عن درك العبودية في عقله المختصر، وعلمه المحتقر، أن يدرك سر الاله في خلقه، ويقيس أحكامه سبحانه على مقتضى عقله، وهل هو في ضرب المثال إلا بمنزلة الطفل الصغير، الذي ينكر فعل الكبير العاقل المميز العالم الخبير، العارف بالأمور الدنيوية والأخروية، الذي هو في منزلة النبوة، ومحل الرسالة، وسياسة الخلق أجمعين، وعارف بالصنائع الدقيقة والجليلة، فيستجهل هذا الصغير رأيه، ويعمّقه ويصوّب رأي نفسه وعقله. إذا أنكر العاقل عليه لَعَبِهِ بالقَذَر، وأخذه للحيّة يجعلها في فمه أو الوزغة أو العقرب، فإذا نهاه ذلك الرجل الكامل العاقل في جميع ما شرحناه استجهله واستحمقه، وبكى وظن بنفسه أنه أكمل عقلاً منه، وأفضل وأصوب رأياً وأنبل، فهذه صفة القدرية والامامية مع خالقهم، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ[2] ﴾. وإنما ضرب الأمثال يقرب المعاني البعيدة إلى فهم القاصرين والمتقاعدين عن رتبة أهل البصائر والمتميزين، كما ضرب الله تعالى أقل الأشياء مثلاً لنوره في قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ[3] ﴾ كما قدمناه في إيمان المؤمن وما بعده في أعمال الكفار، ولقد حكى عن الطائي الشاعر أنه أنشد قصيدة في مجلس بعض الخلفاء يمدحه فيها حتى جاء إلى قوله:

---

(١) ٢٣: الأنبياء.

(٢) ٦٠: النحل.

(٣) ٣٥: النور.

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء إياس

فنظر الحاضرون بعضهم إلى بعض إزراءً عليه وإنكاراً لفعله، إذ شبّه أمير المؤمنين بصعاليك العرب، فتفطّن في حال إنشاده لمقصودهم، وعلم ما جال في خواطرهم، فجاش صدره وقهقهت رويّته، فقال على البديهة هذين البيتين وهما:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنورهِ مثلاً من المشكاة والنبراسِ

فتفقدت القصيدة فلم يوجد هذان البيتان فيها، وإنما تصفح القرآن من ساعته بعين قلبه، ونظم هذين البيتين ببديهته من تَلَقّي لبّه.

وفي هذه السورة يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ[1] ﴾.

ذكر في التفسير أن قوله تعالى ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾ نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وأنها خصّت أبا طالب[2] وعمت ﴿ **ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ خصّت هذه عمه العباس[3] وعمّت، وبعد ذلك كله يقول الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[4] ﴾.

---

(١) ٥٦: القصص.

(٢) القرطبي ١٣/ ٢٩٩ : أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ ، وهو نص البخاري ومسلم.
- أنظر البخاري، كتاب الجنائز: باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله.
- انظر مسلم، كتاب الايمان باب الدليل على صحة اسلام من حضره الموت... الخ.

(٣) القرطبي ١٣/ ٢٩٩ : ﴿ **ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ إشارة إلى العباس، قاله قتادة.

(٤) ٦٨، ٦٩، ٧٠: القصص.

سورة الروم: فيها آيتان قاصمتان لظهور القدرية، الذين يعتقدون أن مع الله تعالى شركاء خلقوا كخلقه، أوردهما الله سبحانه في ضرب المثل ليظهر قباحة الشركة فيما استأثر الله به لكل عاقل ولله المثل الأعلى وهما قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١)﴾

ثم قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢)﴾.

سورة السجدة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٣)﴾.

والقدرية تقول في هذه الآية وغيرها من الآيات التي علّق فيها الهداية بمشيئته: إن ذلك لو كان منه لكان على طريق الالجاء، قالوا: ونحن نقول ذلك: وإن الله تعالى لو شاء أن يلجيء الكفار إلى الايمان بالله لفعل ذلك، لكن لا يحسن منه فعله لأنه ينقض الغرض المجري بالتكليف إليه، وهو الثواب الذي لا يستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره.

---

(١) ٢٨: الروم.

(٢) ٢٩: الروم.

(٣) ١٣: السجدة.

وقالت الامامية منهم في قوله تعالى: ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾ الآية، إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله عندنا هداية الكل إليها: قالوا: بل الواجب هداية المعصومين فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله وفي جواز ذلك منع لقطعهم على أن المراد هداها إلى الايمان.

فنقول قوله تعالى: ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾ أخبر سبحانه إن لو شاء لآتى كل نفس هداها الذي هو نافع لها في معادها، والهدى النافع في المعاد هو الإيمان والطاعة الواقع على جهة الاختيار لا على جهة الاضطرار، وقد تكلم العلماء عليهم في هذين التأويلين ما فيه كفاية، لا سيما في كتاب «الاملاء» للشيخ الفقيه العالم الأوحد أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب رحمة الله عليه، فإنه كلام ممتع في الكلام عليهم في هذا الفن في كل آية أوردت حجةٌ عليهم أو شبهة لهم، فاطلبه تظفر بالمطلوب إن شاء الله تعالى.

والذي لا بد منه في هذه اللمحة المختصرة، أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم، أن يهديهم الله سبحانه على طريق الالجاء، لأن الالجاء هو الإكراه والاجبار، فصار ذلك يؤدي إلى مذهب الجبرية وهو مذهبٌ رذلٌ عندنا وعندكم، فلم يبقَ إلا أن المهتدين من المؤمنين، إنما هداهم الله إلى الايمان والطاعة على طريقة الاختيار حتى يصح التكليف، فمن شاء آمن وأطاع إختياراً لا جبراً.

قال الله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ[1] ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا[2] ﴾ ثم عقب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ[3] ﴾.

---

(١) ٢٨: التكوير.
(٢) ١٩: المزمل، ٢٩: الانسان.
(٣) ٣٠: الانسان.

فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله ، ولهذا أفرطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم معذوف بمشيئته تعالى ، فقالوا الخلق مجبورون في طاعتهم كلها ، إلتفاتاً منهم إلى قوله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ وفرّطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الايمان معذوف بمشيئة العباد ، فقالوا الخلق خالقون لأفعالهم إلتفاتاً منهم إلى قوله تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد وهو مذهبٌ بين مذهبي المجبرة والقدرية ، وخير الأمور أوساطها ، وذلك أن أهل الحق قالوا نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، بما كنا قدمناه في صدر الكتاب ، وهو أنا ندرك تفرقة بيّنة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الانسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش ، ومن لا يفرق بين الحركتين حركة الاختيار وحركة الارتعاش وهما موجودتان في ذاته ، ومحسوستان في يده ، لمشاهدته وإدراك حاسّته ، فهو معتوه في عقله ، ومختلٌ في حِسِّه ، وخارج من حزب العقلاء . .

هذا هو الحق المبين ، وهو طريق بين طريقي الافراط والتفريط ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وبهذا الاعتبار إختار أهل النظر من العلماء أن سموا هذه المنزلة بين المنزلتين كسباً ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله عز وجل ، وهو قوله سبحانه : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [1] وظهر لك من هذا أن إكتسابات العباد خلق لله تعالى دونهم ، وكسبٌ لهم دون الله تعالى ، لأن الكسب لا يتصور من الله تعالى لتعلقه بالقدرة الحادثة ، ولا يتصور الخلق من المخلوقين لعدم علمهم بتفاصيل ما يصدر منهم ، ولما قام من الدليل أن لا خالق إلا الله . وللفقيه أبي القاسم رحمة الله عليه في هذه المسألة تصنيف ممتع ، بين فيه حقيقة الكسب أملاه عليّ فاطلبه .

وقد قامت الأدلة البراهينية في الآيات الكتابية ، أن الله سبحانه ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [2] وأن كلا من عند الله ، وأن الله ﴿خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ [3]﴾

---

(١) ٢٨٦ : البقرة .

(٢) ١٦ : الرعد .

(٣) ٢ : التغابن .

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[1]﴾ ، أي وعملكم و ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ[2]﴾ و ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ[3]﴾ و ﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ[4]﴾.

وأمثالها في القرآن كثير، وقول النبي ﷺ : «كنزٌ من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال: أتدرون ما تفسيرها؟ لا حول عن معصية الله ولا قوة على طاعة الله إلا بالله[5]». وقوله عليه السلام: «إن الله خالق كل صانع وصنعته[6]».

وشبه هذه المسئلة مسئلة الكلام أنه حرف وصوت، واختلفوا في إجراء صفة الكلام على الله تعالى، فقالت الحشوية: هو من صفات الله تعالى هرباً من أن يجعلوه محدثاً، وقالت المعتزلة هو من صفات أفعاله هرباً من أن يجعلوا الصوت والحرف قديماً، فوصفت الحشوية ربها بأنه في أزل أزله متكلم بصوت وحرف. وقالت المعتزلة إن كلامه محدث مخلوق، فلزمهم أن يكون جل جلاله قبل أن يحدث كلامه إما ساكتاً وإما أخرس، وكلاهما صفتا ذم، تعالى الله عن قبولهما. وكونه متكلماً صفة كمال وهو أحق أن يوصف بها، ويلزم المعتزلة لما أحدث كلامه إما أن يكون أحدثه في ذاته فيصير محلاً للحوادث، وإذا كان محلاً للحوادث وجب أن يكون محدثاً، وإما أن يكون خلقه وأحدثه لا في محل وهذا يوجب قيام الصفة بنفسها لا في محل، وهو مستحيل، وإما أن يكون خلق كلامه وأحدثه في غيره كما قال بعضهم خلقه في الشجرة، فليزمهم أن تكون الشجرة هي المكلمة لموسى عليه السلام، وأن تكون هي القائلة أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وهو باطل أيضاً، وإنما أعمت قلوبهم أنه وردت في كتاب الله تعالى لم يفقهوا معناها، وهي قوله تعالى:

---

(١) ٩٦: الصافات.

(٢) ١٠٨ : الأنعام.

(٣) ٧. الحجرات.

(٤) ١٧ : الحجرات.

(٥) انظر كنز العمال ١/ ٤٥٩ الباب الثالث في الحوقلة. فقد ساق الفاظاً كثيرة في هذا المعنى.

(٦) رواه البخاري في خلق أفعال العباد: ص/ ٤٦ باب أفعال العباد.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ[1] ﴾ ولا يشك عاقل أن القرآن محدث التنزيل ، ولم ينزل القرآن على محمدﷺ إلاّ نجوماً، شيئاً بعد شيء في نيّف وعشرين سنة.

فالله تعالى يقول لنبيه عليه السلام ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ[2] ﴾ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ[3] ﴾.

وقوله بعد النبوة والرسالة: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ[4] ﴾ حتى

---

(١) ٢: الأنبياء.

(٢) ٥٢: الشورى.

- الشفا ٢/ ٢٦٦: معنى قوله ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴾ فالجواب أن السمرقندي قال: معناه: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الايمان، وقال أبو بكر القاضي نحوه. قال: ولا الايمان الذي هو الفرائض والأحكام، قال: فكان قبل مؤمناً بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فزاد بالتكليف إيماناً وهو أحسن وجوهه.

(٣) ٧: الضحى

- الشفا ٢/٢٦٢: فما معنى قوله ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾؟ فليس هو من الضلال الذي هو الكفر. وقيل: وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك، وهداك للايمان وإلى إرشادهم. ونحوه عن السدي وغير واحد.

(٤) ٩: الأحقاف.

- القرطبي ١٨٧/٦: وقيل: المعنى لا أدري ما يفرض علي وعليكم من الفرائض واختار الطبري أن يكون المعنى: ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا أتؤمنون أم تكفرون، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخرون. قلت: وهو معنى قول الحسن والسدي وغيرهما. قال الحسن: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أما في الآخرة فمعاذ الله! قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه من الرسل، ولكن قال ما أدري ما يفعل بي في الدنيا: أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي، أو اقتل كما قتلت الأنبياء قبلي، ولا أدري ما يفعل بكم.

ثم نزلت: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾. =

نسخت بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1] الآيات الواردات فيه ﷺ وفي المؤمنين وفي المشركين إلى قوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[2] فلو كانت هذه الآيات نزلت عليه أولاً لما قال: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ[3]﴾. وهذه جهالة من أهل الاعتزال بصفات ذي الجلال والكمال.

والحشوية أصابوا الحق من حيث قالوا أنه متكلم في أزل أزله بكلام قديم أزلي كسائر صفاته الذاتية، وأخطأوا في قولهم أن كلامه صوت وحرف. والمعتزلة أخطأوا في قولهم: إن كلام الله صوت وحرف، وأصابوا في كونهم نزهوا ذات الله عن الحرف والصوت، ولكنه تنزيه فيه عدم التنزيه فلزم منه جميع ما ذكرناه.

ومذهبنا هو الحق المبين، وهو مذهب بين طريقي الافراط من المعتزلة والتفريط من الحشوية، وهو أن الله تعالى متكلم بكلام أزلي قديم كسائر صفاته، وأن حقيقة الكلام أنه معنًى قائم بالنفس وليس بحرف ولا صوت، وإنما يستدل عليه بالحروف والأصوات ليفهم الغير، تارةً للحاضر إذا كان يفهم لغتنا، وبلغته تارةً إذا كان عجمياً، وتارة بالحروف وحدها إذا كان غائباً، وإن كان حاضراً وهو أخرس، فيستدل على الكلام القائم بذاتنا له بالاشارة والايماء، ولا يطيق أحد من البشر، أن يوصل كلامه القائم بذاته إلى افهام غيره من الخلق إلا بالحروف والأصوات. فأما ربنا جلّ وعلا فيكلم خلقه على ثلاثة أنحاء: إما إلهاماً كالخضر عليه السلام، وإما من وراء حجاب كموسى عليه السلام، وإما بإرسال رسول كمحمد ﷺ. قال الله

= يقول: ثم قال في أمته: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته، ولا نسخ على هذا كله، والحمد لله.

(١) ١: الفتح.

(٢) ٦: الفتح.

(٣) فعلى هذا السياق يكون المعنى: على ما قد مرّ تفسير الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا. أنظر أضواء البيان ٧/ ٣٧٧.

تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا[1] ﴾. فأين الحرف والصوت ها هنا، واين اشتبه عليهم في تكليم موسى وإرسال الرسول؟ فما في إلهام الخضر عليه السلام إشتباه والحمد لله، فليتأمل، ففيها شفاء للصدور.

وكذلك لا يطيق البشر أن يتلوا كلام الله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾[2] تأمل قوله: ﴿ يسرناه ﴾ ففيه معنى الصنع، وقوله: ﴿ بلسانك ﴾ ففيه معنى لغة الغرب.

وكذلك قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا[3] ﴾. ففي جعلناه معنى صيّرناه، وفي قوله عربياً معنى اللغة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[4] ﴾. فانظر إلى فضل الله سبحانه ولطفه بخلقه، وعظيم كلامه في طي حروف وأصوات، هي صفات أنفسهم، كما يصنع الخلق في إفهام كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم إلى بواطن البهائم فيما يراد من تقديمها وتأخيرها، ومشيها ووقوفها، وشربها الماء، بوسيلة صفات البهائم من النقر والصفير والأصوات التي تشاكلها.

وكذلك الطفل الصغير فيما يخاطب به عند الزجر والتخويف والترغيب والتفهيم في الأشياء المضرة المفزعة، والأشياء الملذة الحسنة بنوع من الألفاظ المشاكلة لفهمه، فصارت الحروف والأصوات والكتابة تعظّم وتوقر وتحترم، إذا كتب بها كلام الله أو تُلي، وإذا لم يكتب بها إلا الشعر وكلام المخلوقين لم يكن لها حرمة ولا تعظيم ولا توقير، ولا يوجب ذلك قدمها، كحجارة البيت العتيق قطعت من الجبلَ

---

(١) ٥١: الشورى.

(٢) ٩٧: مريم.

(٣) ٣: الزخرف.

(٤) ٢٢، ٣٢، ٤٠: القمر.

فبنيت بها الكعبة، فعظمت بالطواف حولها ولا يقربها حائض ولا جنب ولا من على غير وضوء.

فكذلك المصحف ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[1] ولا يسافر به إلى أرض العدو إحتراماً لكلام الله تعالى، ولا يوجب ذلك قدم المصحف كما لا يوجب قدم الكعبة ولا قدم الحجر الأسود الذي يُعظَّم ويقبَّل ويلتزم.

وكذلك تعظيم الأنبياء واحترامهم لا يوجب قدمهم، فما أعظم جهل الحشوية وما أحمقهم، وصارت الحروف والأصوات والكتابة كأنها جسد لروح كلام الله، وصار كلام الله كأنه روح الأجساد، الحروف والأصوات والكتابة، وما أحسن ما تفطن له بعض الشعراء حيث قال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقد أخبر عن المعنيين جميعاً بقوله تعالى ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[2] ﴾

وبقوله تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ[3] ﴾

ثم قال ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[4] الا تراهم كيف لما دخلوا على النبيﷺ غشوه في التحية بالنطق بلسانهم، وأخبر الله عن كلامهم الموجود في بواطنهم بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وبقوله تعالى: ﴿بِمَا نَقُولُ﴾.

واعلم بعد ذلك كله أن المعتزلة إنما تلقوا إعتقادهم في كلام الله تعالى من العقل المحض، والحشوية تلقوا إعتقادهم في كلام الله تعالى من ظاهر الشرع

(١) ٧٩: الواقعة.

(٢) ١٣: الملك.

(٣) ٨: المجادلة.

(٤) ٨: المجادلة.

المحض، ومن العرف الجاري به العادة فيما يتخاطب به الخلق، فظنوا أن كلام الله مثل كلامهم فحكموا على الغائب عنهم بالشاهد عندهم، ومن قاس الغائب على الشاهد فقد أخطأ عند جماعة المتكلمين وأهل العقل أجمعين فلا يحمل علم العالم على جهل الجاهل، وكونهم يقولون: لا يفهم كلاماً إلا صوتاً وحرفاً فكلام العوام ومن لا يدري شيئاً ولا يعرف أحقيقة لا ولا مجازاً، وسبب ذلك كله عدم ممارستهم للعلماء، بل لطلبه العلم من أهل الكلام، فهؤلاء فرّطوا وأولئك أفرطوا وأهل الحق جمعوا بين المعقول والمنقول، أي بين العقل والشرع، واستعانوا في درك الحقائق بمجموعهما فسلكوا طريقاً بين طريقي الافراط والتفريط، وسنضرب لك مثالاً يقرب من إفهام القاصرين ذكره العلماء كما أن الله تعالى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، فنقول لذوي العقول مثال العقل العين الباصرة، ومثال الشرع الشمس المضيئة، فمن استعمل العقل دون الشرع كان بمنزلة من خرج في الليل الأسود البهيم وفتح بصره يريد أن يدرك المرئيات، ويفرق بين المبصرات، فيعرف الخيط الأبيض من الخيط الأسود والأحمر من الأخضر والأصفر، ويجتهد في تحديق البصر فلا يدرك ما أراد أبداً مع عدم الشمس المنيرة وإن كان ذا بصر وبصيرة، ومثال من استعمل الشرع دون العقل، مثال من خرج نهاراً جهاراً وهو أعمى أو مغمض العينين، يريد أن يدرك الألوان ويفرق بين الأعراض، فلا يدرك الآخر شيئاً أبداً، ومثال من استعمل العقل والشرع جميعاً مثال من خرج بالنهار وهو سالم البصر، مفتوح العينين والشمس ظاهرة مضيئة، فما أجدره وأحقه أن يدرك الألوان على حقائقها، ويفرق بين أسودها وأحمرها وأبيضها وأصفرها.

فنحن بحمد الله السالكون لهذه الطريق وهي الطريق المستقيم، وصراط الله المبين، ومن زل عنها وحاد وقع في طريق الشيطان المتشعبّة عن اليمين والشمال.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ [1] ﴾.

(١) ١٥٣: الأنعام.

وقال تعالى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ(1) ﴾. وقال النبيﷺ : تفرقت بنو اسرائيل على إثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ـ يزيد عليهم ملة واحدة ـ كلها في النار إلا واحدة، فسألوه عن هذه الواحدة فقال: ما أنا عليه وأصحابي(2).

فالله تعالى يثبتنا عليها، ولا يحيد بنا عنها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وسألت بعض العلماء العارفين ما هذه الفرقة التي زادت في فرق أمة محمدﷺ ؟فقال: رأيت في كلام المحققين الباحثين العارفين أن هذه الفرقة الزائدة في هذه الأمة قوم يتعرضون العلماء ويعادون الفقهاء، ولم يكن ذلك قط في الأمم السالفة ففتشت فوجدت ذلك صحيحاً. فللّه الحمد وله المنة. فإنما أطلنا الكلام هنا لأن هذه الآية ومثلها من الآيات في القرآن كثير، تتضمن تعليق الهداية بمشيئة الرب سبحانه، فأوضحنا القول فيها بما يقتضي إيصال المقصود منها إلى فهم القاصر، والتارك النظر في علم الكلام، ونقرب من إفهام العوام، والله الموفق للصواب.

سورة الملائكة عليهم السلام: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ(3) ﴾ وقد تقدم ذكرها.

---

(1) ١١٥: النساء.

(2) ورد هذا الحديث بعدة ألفاظ ولفظ: «ما أنا عليه وأصحابي» أخرجه الترمذي في الايمان: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة وقال: حديث حسن صحيح، وأما لفظة «الجماعة» فقد أخرجه أبو داود في سننه في السنة: باب شرح السنة.

(3) ٨: فاطر.

سورة يس: فيها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [1] ﴾ إلى قوله: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [2] ﴾.

سورة الصافات: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [3] ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [4] ﴾.

تأمل قوله: ﴿ **أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون** ﴾ ولا يستريب في أن الله خلق الخلق وأعمالهم، لأنهم كانوا ينحتون الأصنام ويعبدونها من دون الله، فأزرى عليهم وبكّتهم، لأن النحت فعلهم وعملهم، وقد أخبرك الله أنه خلقهم وعملهم، ومن عملهم أيضاً سجودهم للأصنام، وهي عبادتهم لها فأزرى عليهم، وقال: أنا خلقتكم وخلقت عملكم، وهو نحتكم للأصنام وسجودكم لها، فكيف تعبدون ما تنحتون وأنا الخالق لكم ولأعمالكم، فأنتم ملكي وأعمالكم خلقي فكيف تعبدون غيري بما خلقته فيكم مع كونكم خلقي وملكي، على نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا [5] ﴾ لأن المساجد هي الاراب

---

(١) ٧: يس.

(٢) ١٠: يس.

(٣) ٨٣، ٨٤: الصافات.

(٤) ٩٥، ٩٦: الصافات.

(٥) ١٨: الجن.

السبعة وهي الوجه واليدان والرجلان والركبتان[1] فكأنه سبحانه يقول هذه الاراب خلقي وملكي وكيف تسجدون عليها لغيري.

فاعتبر الاثنين وتأملهما، وأجل فكرك فيهما فلا عبادة كالتفكر، والتفكر سحاب يمطر الحكمة، فتفكر في آيات الكتاب وفي آيات صنعه تعثر على الصواب.

سورة الزمر: يقول فيها: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ[2] ﴾ وفيها يقول: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ[3] ﴾ ثم قال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ[4] ﴾.

وفيها يقول: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾[5].

---

(١) القرطبي ١٩/ ٢٠ : وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والوجه ، يقول: هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد لغيره بها، فتجحد نعمة الله ؛ قال عطاء: مساجدك: أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها.

(٢) ١٩: الزمر.

(٣) ٢٢: الزمر.

(٤) ٢٣: الزمر.

(٥) ٣٦، ٣٧: الزمر.

سورة المؤمن[1]: قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ[2]﴾.

سورة الشورى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ[3]﴾.

جرياً على سنته فيما تقدم من الآيات، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

وكذلك الآية التي في آخر السورة: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ[4]﴾.

قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ[5]﴾ لأنه قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ[6]﴾ فافهم راشداً هذه النكت توفق إن شاء الله.

---

(١) وتسمى: سورة غافر.

(٢) ٣٣: غافر.

(٣) ٨: غافر.

(٤) ٤٤: الشورى.

(٥) ٢٨: الأنعام.

(٦) ١٤: تبارك.

سورة الجاثية: فيها قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (1) ﴾ هذه الآية ذابحة لحلوق القدرية والامامية ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (2) ﴾.

سورة الحجرات: في أولها قوله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (3) ﴾ لا إله إلا الله، ولا شريك مع الله في خلق ذوات الخلق، وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، فإنه الواحد القهار يخلق ما يشاء ويختار.

وفي آخرها قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (4) ﴾.

سورة القمر: سمعت الشيخ الفقيه أبا حفص عمر الذهبي رحمة الله عليه يقول: إذا كان يوم القيامة تسحب القدرية في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ (5) ﴾ ووجدت في كتاب

---

(1) ٢٣: الغاشية.
(2) ٢٣، الرعد؛ ٢٣: الزمر.
(3) ٧: الحجرات.
(4) ١٧: الحجرات.
(5) ٤٨، ٤٩: القمر.

« التحصيل » للمهدوي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ[1]﴾
قيل المجرمون في هذه الآية القدرية. وفيه يقول: قال أبو هريرة جاء مشركو العرب الى رسول الله ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ[2]﴾.

وتشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا[3]﴾.

وقبلها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ[4]﴾ الآية.

سورة المجادلة: فيها قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ[5]﴾.

والقدرية يقولون: إنهم يمحون ما كتب الله في قلوبهم إذا همّوا وأرادوا وهذه مغالبة، تعالى الله في جلال تعاليه علواً كبيراً.

بل قال سبحانه قبل هذه الآية: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ[6]﴾ وهذا هو الحق المبين لمن هداه الله ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ[7]﴾

---

(١) ٤٧: القمر.

(٢) ٤٧، ٤٨، ٤٩: القمر. وانظر صحيح مسلم كتاب القدر: باب كل شيء بقدر.

(٣) ١٣: السجدة.

(٤) ١٢: السجدة.

(٥) ٢٢: المجادلة.

(٦) ٢١: المجادلة.

(٧) ٤٦: الحج.

سورة الملك: قوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(1) ﴾.

استدل على علمه سبحانه بخلق أفعال العباد، ففيها رد على القدرية والمعتزلة والحشوية، وذلك أن فيها دلالة على خلق أفعال العباد وعلى علمه سبحانه، وعلى أن القول يكون تارة في النفس وتارة بالصوت والحرف، فاعلم.

وفي سورة ن(2): قوله في شأن يونس عليه السلام: ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(3) ﴾ جرياً على عادته مع الأنبياء عليهم السلام فيما تقدم.

سورة المدثر: قوله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة المخزومي: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(4) ﴾ لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل(5): يا معشر قريش أتعجزون وأنتم الملأ أن يكفيني كل مائة منكم رجلاً واحداً، إن محمداً يزعم أن ليس يعذب في النار إلا تسعة عشر. فأنزل الله تعالى عقيب ذلك: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ

---

(1) ١٣، ١٤: الملك.

(2) وتسمى: القلم.

(3) ٤٩، ٥٠: القلم.

(4) ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠: المدثر.

(5) أنظر القرطبي ١٩/ ٨٠ ـ ٨١، فيها ذكر نحو هذه القصة.

كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ [1] ﴾ يعني اليهود والنصارى، لأن ذلك في كتابهم المنزل على نبيهم ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا [1] ﴾ بما وجدوه عند أهل الكتاب موافقاً لما عندهم في كتابهم ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ [1] ﴾ أي لا يشركون فيما أنزل عليهم في كتابهم، والمؤمنون أيضاً كذلك فيما أنزل على محمد ﷺ ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ [1] ﴾ يعني المنافقين ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ [1] ﴾ يعني قريشاً ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا [1] ﴾ فأجابهم الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [1] ﴾. قال في التفسير [2] أي كما أضل الله هؤلاء المنافقين والمشركين، كذلك يضل الله من يشاء من خلقه فيخذله عن إصابة الحق، ويهدي من يشاء فيوفقه للحق.

وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ [3] ﴾ فتأمل أن آية واحدة يضل بها قوماً، ويهدي بها آخرين، بل يزيدهم بها إيماناً وهم يستبشرون. كهذه الآية التي قال فيها:

---

(1) ٣١: المدثر.

(2) القرطبي ١٩/٨٢ : ﴿ **وكذلك** ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم ﴿ **يضل الله** ﴾ أي يخزي ويعمي ﴿ **من يشاء ويهدي** ﴾ أي ويرشد ﴿ **من يشاء** ﴾ كإرشاد أصحاب محمد ﷺ. وقيل: ﴿ **كذلك يضل الله** ﴾ عن الجنة ﴿ **من يشاء ويهدي** ﴾ إليها ﴿ **من يشاء** ﴾.

(3) ١٢٤، ١٢٥: التوبة.

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا [1] ﴾
والكتاب لمن تأمله يشد بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض.

وفيها: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ [2] ﴾ ثم قال:
﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ [3]. ﴾.

هل أتى على الإنسان: فيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [4] ﴾ وفي آخرها: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا [5] ﴾.

سورة التكوير: قوله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ [6] ﴾
ثم قال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ [7] ﴾.

---

(١) ٣١: المدثر.
(٢) ١١، ١٢: عبس.
(٣) ٥٦: المدثر.
(٤) ٢، ٣: الانسان.
(٥) ٢٩، ٣٠، ٣١: الانسان.
(٦) ٢٨: التكوير.
(٧) ٢٩: التكوير.

سورة الشمس وضحاها: قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا [1] ﴾.

إذا احتج محتج بهذه الآية على القدرية وهي قوله: ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ أي من زكى الله نفسه، ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ قال الضمير في زكى يعود على «من» ولا يعود على الله كما فعلوا في الضمير في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا [2] ﴾ كما تقدم من قولهم أن الضمير في يشرح، وفي يجعل يعود على من، ولا يعود على الله تعالى، فيقال لمن قال ذلك: فما تصنع في الآية التي قبلها؟ وهي قوله تعالى: ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾. ويشد هذا قول النبيﷺ في دعائه المقتبس من الكتاب العزيز: «اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها»[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ [4] ﴾.

---

(١) ٧، ٨، ٩، ١٠: الشمس.

(٢) ١٢٥: الأنعام.

(٣) رواه النسائي في «المجتبى» كتاب الاستعاذة: باب الاستعاذة من دعاء لا يستجاب، ومسلم في صحيحه كتاب الذكر: باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، ورواه أحمد في مسنده ٤/ ٣٧١، ٦/ ٢٠٩.

(٤) ٢١: النور.

سورة والليل إذا يغشى: قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ [1] ﴾.

حدثنا الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب رضي الله عنه باسناده الى رسول الله ﷺ، رواه علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: « كنا في جنازة في بقيع الغرقد، قال فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصره فنكّس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: « ما منكم من أحد من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة » فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال عليه السلام: « إعملوا فكل ميّسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأﷺ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ [2] ﴾.

والقدرية تقول إنما ذلك من الله تعالى على طريق الجزاء، فيقال لهم: من مذهبكم أن الله تعالى يجب عليه مراعاة الأصلح لعباده، فما باله عرضهم للنار بتيسير عمل العسرى، أما كان ييسر عليهم طريق التوبة والانابة إليه، والصلاح، والفلاح، فيكون ذلك أصلح لهم، وذلك عندكم هو واجب على الله أن يفعله

---

(١) ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠: الليل.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر: باب كيفية الخلق الادمي في بطن امه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته، والبخاري بنحوه كتاب الجنائز: باب موعظة المحدث عند القبر.

لعباده، وإلاّ خرج عن الحكمة وانعزل عن الالهية، وما باله أن لم يفعل لهمْ ذلك ما أماتهم أطفالاً قبل أن يبلغوا الحلـم، فيبخلـوا بالمـال ينفقونـه في سبيل الله، ويستغنون عن ربهم، فلم يرغبوا في العمل بطاعته، ولم يكذبوا بالحسنى، وإذا فعل بهم ذلك وأماتهم صغاراً أدخلهم الجنة كما قال تعالـى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [1] ﴾ فإذا دخلوا إلى الجنة ونظروا إلى أهل الأعمال في عليين قالوا: يا ربنا ما بالك لم تعطنا كما أعطيت أهل عليين فيقول: هؤلاء أهل الأعمال الصالحة وأنتم متّم صغاراً لم تبلغوا ولم تعملوا، فيقولون: يا ربنا فأنت أمتنا صغاراً ولم تنظر لنا بالأصلح، ولو أبقيتنا حتى نبلغ الحلم لعملنا كما عمل أهل عليين، فجازينا كما جازيتهم، فيقول لهم: علمت أنكم إذا بلغتم كفرتم وعصيتم فأدخلكم النار، فنظرت لكم بالمصلحة فأمتّكم صغاراً فأدخلتكم الجنة، وهذا هو الأصلح لكم. فعند ذلك ينادي أهل النار من دركات لظى: واجواره يا ربنا لو أمتنا صغاراً كان الأصلح لنا أن نكون مع أطفال أهل الجنة في أقل منازلها، فيخصم الرب جل جلاله على مذهب المعتزلة، ويتعالى حكم ذلك الجلال أن يوزن بميزان أهل الاعتزال.

سورة والضحى: فيها قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ [2] ﴾.

ثم أمره بثلاثة في مقابلة هذه الثلاثة، فقال سبحانه في مقابلة: ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى** ﴾ ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ [3] ﴾ وقال في مقابلة: ﴿ **ووجدك ضآلاً فهدى** ﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ [4] ﴾ فمن استرشدك فارشده، ومن سألك فأجبه

(١) ٢١: الطور.

(٢) ٦، ٧، ٨: الضحى.

(٣) ٩: الضحى.

(٤) ١٠: الضحى.

ولا تنهره، وقال في مقابلة: ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ[1] ﴾ فإذا فعل ذلك فقد قام بشكر ما أتاه الله من نعمة التي أولاه إياها، فتفهَّم راشداً إن شاء الله.

كذلك أيضاً عدد عليه نعمة في ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ[2] ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ[3] ﴾ مم ألزمه بشكر ذلك فقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب[4] ﴾.

سورة الفلق: قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ[5] ﴾ والقدرية تقول ما خلق الله شراً، كما يقول المجوس. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة[6]». وذلك أن من المجوس من يقول بالتثنية فيقولون للعالم إلـهان، أحدهما يخلق الخير والأنوار وهو الرحمن، والأخر يخلق الشر والظلمة وهو الشيطان، وأنهما اختلفا ثم تهادنا إلى وقت مخصوص معلوم، يعبرون عنه بالقيامة، ويسمون بالثنوية[7] والمانوية[8] ينسبون إلى ماني المجوسي الذي كان في زمان كسرى، وهم الذين عناهم المتنبي بقوله:

---

(١) ١١: الضحى.

(٢) ١: الشرح.

(٣) ٤: الشرح.

(٤) ٧، ٨: الشرح.

(٥) ٢: الفلق.

(٦) رواه أبو داود في سننه في أول كتاب القدر بزيادة: «ان مرضوا فلا تعودوهم، وان ماتوا فلا تشهدوهم» ورمز له السيوطي في الجامع ٢/٢٦٣ بالصحة.

(٧) الملل والنحل ١/٢٤٤: يقول الشهرستاني عن الثنوية يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه. وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخير والمكان والأجناس والأبدان والأرواح.

(٨) الملل والنحل ١/٢٤٤: يقول الشهرستاني: المانويه أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي =

وكم لظــلام الليل عنــدك من يد تخبــر ان المانــوية تَكْذِبُ
وقــاك ردى الأعــداء يســري عليهــم وزادك فيه ذو الــدلال المحجب

يقول للممدوح إنك تفعل الخيرات في ظلام الليل وتنال الظفر بأعدائك في الليل. ومن مذهب الثنوية أن الظلام ليس فيه ولا عنده خيرٌ، وأنت أيها الممدوح قد نصرت على أعدائك ونلت المطلوب من مرادك في ظلام الليل، وهذه الأحوال تكذب المانوية الذين يقولون تلك المقالة، وشر الشرور إبليس اللعين، والله خلقه وبث الشر منه.

وقيل لقدري: كيف يقول ما خلق الله شراً وهو سبحانه يقول: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[1] فقال: لست أقرؤها هكذا. قيل له فكيف تقرؤها؟ فقال: من شرٍ ما خلق، فينوِّن شراً ويجعل ما نفياً. فتعجبوا يا أولي الألباب من هذا العجب العجاب، يفسدون القرآن ويخالفون ربهم حتى يصلحوا إعتقادهم ومذهبهم.

وفيما أخذناه عن سيدنا الفقيه الشيخ أبي القاسم رضي الله عنه ما أخبرنا به عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي بكر رضي الله عنه: « يا أبا بكر لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس ».

= ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن حرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام. أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام.

حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم: أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلاعن أصل قديم، وزعم أنهما لم يزالا قويين حساسين، داركين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس، والصورة، والفعل، والتدبير، متضادان، وفي الحيز متحاذيان تحاذي الشخص والظل.

(١) ٢: الفلق.

فصل في ذم القدرية

مما أورده الشيخ الفقيه أبو القاسم رحمه الله في كتاب « الاملاء » له الذي أملاه علي وأنا اكتب، من ذلك ما حدثنا به بإسناده إلى رافع بن خديج، مما حمله سعيد بن المسيَّب، ذكر ذلك عمرو بن شعيب قال: كنا عند سعيد بن المسيب فذكروا رجالاً يقولون: قدّر الله كل شيء ما خلا الأعمال، قال: فوالله ما رأيت سعيداً غضب غضباً قط أشد منه يؤمئذ حتى هم بالقيام، ثم أنه سكن، فقال أتتكلمون به؟ والله لقد سمعت فيهم حديثاً كفى بهم شراً ويحهم لو يعلمون، قال فقلت: يرحمك الله يا أبا محمد فما هو؟ قال: فنظر إلي وقد سكت بعض غضبه، فقال: حدثني رافع بن خديج أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « يكون في أمتي قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون، كما كفرت اليهود والنصارى. قال فقلت: جعلت فداك يا رسول الله كيف ذلك؟ قال تقرون ببعض وتكفرون ببعض، قال قلت: جعلت فداك يا رسول الله فكيف يقولون؟ قال: يجعلون إبليس عدلاً لله في خلقه وقوّته ورزقه، ويقولون الخير من الله، والشر من إبليس، قال: فيكفرون بالله، ثم يقرأون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الايمان والمعرفة، قال: فما تلقى أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال، أولئك زنادقة هذه الأمة في زمانهم يكون ظلم السلطان، فيا له من ظلم وحيف واثراه، ثم يبعث الله تعالى طاعوناً فيفنى عامتهم، ثم يكون الخسف، فقل من ينجو منه المؤمن يومئذ، قليل فرحه، شديد غمّه، قال: ثم يكون المسخ فيمسخ الله عامة أولئك قردة وخنازير، قال: ثم يخرج الدجال على أثر ذلك قريباً، ثم بكى رسول الله ﷺ حتى بكينا لبكائه، ثم قلنا: ما هذا البكاء يا رسول الله؟ قال: فقال رسول الله ﷺ رحمةً لهم الأشقياء، فإن منهم المتعبد ومنهم المجتهد، مع أنهم ليسوا بأول من سبق إلى هذا القول، وضاق بحمله ذرعاً، إن عامة من هلك من بني إسرائيل بالتكذيب، أنه قال: فقلت يا رسول الله فقل لي كيف الايمان بالقدر؟ فقال: أن تؤمن بالله وحده وأنه لا يملك أحد معه ضراً ولا نفعاً، وتؤمن بالجنة والنار، وتعلم أن الله تعالى خلقهما قبل الخلق، ثم خلق خلقه فجعل من شاء منهم إلى الجنة ومن شاء إلى

النار، عدلاً منه كلُّ ذلك، كلٌ يعمل بما قد فرغ منه، وهو صائر إلى ما خلق له. فقلت صدق الله ورسوله.

ثم ذكر الفقيه طرق هذاالحديث وشرحه، فالتمسه في كتاب « الاملاء » له تجده إن شاء الله.

ومن ذلك. قال الفقيه ما رواه أبو هريرة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم»[1] قال الفقيه: فهذا الخبر في ذم القدرية، إذ هو ﷺ لا ينهى عن مجالسة أهل الدين إقتداء لما علمه الله تعالى إذ يقول في سورة مكية: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ[2] ﴾.

وقد بيّن الله سبحانه عقوبة من فعل ذلك، وخالف ما أمره الله، إذ يقول في سورة مدنية: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا[3] ﴾.

فبيّن سبحانه بقوله: ﴿ **وقد نزل عليكم في الكتاب** ﴾ ما كان أمرهم به من قوله في السورة المكية: ﴿ **فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾ ثم بيّن في هذه السورة المدنية أن مجالسة من هذه صفته لحوق به في إعتقاده، وقد ذهب قوم من أئمة هذه الأمة إلى هذا المذهب، وحكم بموجب هذه الآيات في مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة، منهم: أحمد بن حنبل، والأوزاعي، وابن

---

(١) رواه أبو داوود في السنن كتاب السنة: باب القدر.

(٢) ٦٨: الأنعام.

(٣) ١٤٠: النساء.

المبارك، فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: ينهى عن مجالستهم فإن إنتهى وإلا ألحق بهم، يعنون في الحكم، قيل لهم: فإنه يقول: إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم، قالوا: ينهى عن مجالستهم فان لم ينته أُلحِقَ بهم.

قال: وفيما رواه أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « مجوس العرب وإن صاموا وصلوا، القدرية»[1].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسـول الله ﷺ: « القـدرية مجـوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم[2] ».

قال: وروي عن أبي الدرداء قال: قال رسـول الله ﷺ: « يكون في آخـر أمتي قوم يتفقهون في دين الله ويقرأون كتاب الله كما يشرب الماء البارد لا يجاوز تراقيهم، يكذبون بأقدار الله عز وجل، هم مجوس أمتي هم مجـوس أمتـي هم مجوس أمتي[3] ».

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن لكل أمة مجوساً وإن مجوس هذه الأمة القدرية، فإن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم[4]».

قال: وروى أبو الزبير مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله جل وعز، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن لقيتموهـم فلا تسلموا عليهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم[5]».

وخرَّج أبو داود حديث ابن عمر فيهم الذي سقناه.

وخرَّج عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، ومن مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال[7]».

---

(١) لم أقف عليه في المصادر التي بين أيدينا. (٢) مرّ تخريجه ص/١٠٧.

(٣) لم أقف عليه في المصادر التي بين أيدينا.

(٤) رواه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ باب من اسمه مسلمة بن علي أبو سعيد الخشني الشامي.

(٥) رواه ابن ماجه في السنن في المقدمة: باب في القدر. وقد رمز له السيوطي بالضعف الجامع الصغير ١/ ٣٧٤.

(٦) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة: باب في القدر.

خبر غيلان القدري ومثله على كفره بالقدر

ونورد ها هنا خبر غيلان القدري ومثله على كفره بالقدر. قال بعض المصنفين الأخبار، قال عون: بلغ أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، أن غيلان القدري يتكلم في القدر، فبعث إليه ونهاه، فقال: يا أمير المؤمنين إبعث إلي من يكلمني ويناظرني بين يديك فإن ظفر بي فاقتلني، وإن ظفرت به فما لك علي من سبيل، قال: فبعث أمير المؤمنين إلى الأوزاعي فأتاه فأخبره بما قال غيلان القدري، فقال له خاطبه وناظره وحاجه فوالله لئن ظفرت به لأقتلنّه. فقال له الأوزاعي: تسألني أو أسألك فقال له القدري: سلني ولا تكثره، فقال له الأوزاعي: أسألك عن أربعة أشياء وبعدها أربعة أخرى، هل علمت أن الله قضى على ما نهى عنه؟ فقال له: قضى على ما نهى عنه ما عندي من هذا علم؟ فقال له الأوزاعي: هل علمت أن الله حال دون ما أمر به؟ فقال القدري: هذه أعظم من الأولى ما عندي من هذا علم، فقال الأوزاعي: هل علمت أن الله أعان على ما حرم؟ فقال القدري: هذه أعظم من الإثنتين، ما عندي من هذا علم؟ فأمر به هشام فقتل[1]، ثم قال هشام للأوزاعي: يا أبا عمرو تكلمت ففسره، قال الأوزاعي: سألته عن ثلاث كلمات من كتاب الله تعالى: قلت له: هل علمت ان الله تعالى قضى على ما نهى عنه، نهى آدم عليه السلام عن أكل الشجرة وقضى عليه بأكلها. وقلت له: هل علمت أن الله حال دون ما أمر به، أمر إبليس بالسجود وحال بينه وبين ذلك، وقلت له: هل علمت أن الله عز وجل أعان على ما حرم حرم الميتة وأعان المضطر على أكلها. ثم قال هشام أخبرني عن الرابعة ما هي؟ قال: كنت أقول له أخبرني عن

---

(١) محاسن المساعي في مناقب الامام الأوزاعي ص ١٠٦/ روى محمد بن كثير نحو هذه القصة فانظرها.

- وغيلان القدري هذا هو غيلان بن مسلم. أخذ القول بالقدر عن معبد الجهني. وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز جاء به واستتابه، ثم قتله هشام بن عبد الملك بن مروان. أنظر الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٣٠، لسان الميزان ٤/ ٤٢٤.

مشيئتك أهي متفقة مع مشيئة الله أو مشيئتكم دون مشيئة الله تعالى؟ فأيهما أجابني فيه حلّ دمه. ثم قال هشام للأوزاعي فأخبرني عن الأربعة الأخرى ما هي وما كنت تقول له؟ قال الأوزاعي: كنت أقول له أخبرني عن الله عز وجل خلقك كما يشاء أو كما شئت؟ قال: فكان يقول كما شاء. ثم أقول له: أخبرني عن الله عز وجل يرزقك إذا شئت أو إذا شاء؟ فإنه كان يقول: إذا شاء ثم أقول له: أخبرني عن الله عز وجل يتوفاك إذا شئت أو إذا شاء؟ فإنه كان يقول: إذا شاء، ثم أقول له: فإذا توفاك أين مصيرك حيث شئت أو حيث شاء؟ فإنه كان يقول: حيث شاء. ثم قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين من لم يمكنه أن يحسّ خلقه ولا يزيد في رزقه ولا يؤخر في أجله ولا يصيّر نفسه حيث شاء فأي شيء في يديه من المشيئة؛ قال هشام: صدقت يا أبا عمرو. قوله: فأيها أجاب به حلّ دمه، تفسيره كلام علي عليه السلام لقدري: إن زعمت أنك تملكه مع الله فقد جعلت مع الله مالكاً، وإن زعمت أنك تملكه دون الله فقد جعلت من دون الله مالكاً. قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين إن القدرية ما رضوا بقول الله عز وجل، ولا بقول الملائكة، ولا بقول الأنبياء عليهم السلام الخبر الذي أوردناه في صدر الكتاب، وبيّنا فيه ما قال الله عز وجل، وما قالت الملائكة إلى آخر الخبر، إلا أنه قال في هذا الخبر، أما قول الله عز وجل فإنه قال ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[1]﴾ ومرّ إلى آخره على ما كنا شرحناه.

وأما حديث علي عليه السلام مع القدري، فإن علياً عليه السلام مرّ بنفر من أصحابه فقالوا له: يا أمير المؤمنين إن هذا يقول أن أفعاله تكون بمشيئته؛ فقال له علي عليه السلام: أخبرني هل ملكك الله شيئاً فانت تملِكُهُ أم لا؟ فقال: نعم ملكني صلاتي وصيامي وحجي وجهادي وعتق رقيقي وطلاق نسائي. فقال علي عليه السلام: أشَيْئاً مع الله تملكه أم شيئاً دون الله تملكه؟ قال: إني لا أسمع. فقال علي عليه السلام: إني لأتكلم بلسان عربي مبين ان زعمت أنك تملكه مع الله فقد جعلت مع الله مالكاً وإن زعمت أنك تملكه من دون الله، فقد جعلت من دون الله مالكاً.

---
(١) ٥٠: القلم.

وفي رواية قال علي عليه السلام: وأيَّها قلت أخَذْتُ الذي فيه عيناك، فَبُهِتَ وانقطع. وسأل علياً عليه السلام بعض أصحابه: فقال يا أمير المؤمنين أرأيت أفعالنا هي خلق لله أم لنا؟ فقال: الله خلقها وأنت تعملها لاتسأل عن هذا أحد غيري.

قال الفقيه أبو القاسم: كل ذلك وردت عنه عليه السلام بالأسانيد الصحاح، والأقوال الواضحة، تأمل قوله: الله خلقها وأنت تعملها، أخبرك أن الله خالقها، وأنه خالق كل شيء، ولا خالق سواه. قوله: وأنت تعملها إشارة إلى ما شرحناه أولاً لك في معرفة الكسب، وما يصدر من الإنسان على وجه المحاولة له والايثار كما ورد في القرآن: بما كنتم تعملون وبما كنتم تكسبون ويعلم ما تفعلون. كما تقول هذا لونك، وهذه صحتك، وهذا أيضاً فعلك وعملك وكسبك، لكل ما حاولته وآثرته على الترك، فعند المحاولة أجرى العادة وطرد السُنة أن يخلق القدرة عليه، ويخلق لك الفعل الاختياري المخالف لحركة الارتعاش التي ليست هي بمحاولتك ولا إرادتك ولا مقرونة بقدرتك، وكذلك الزجّ في الصّبب إذا كنت قائماً على جبل عال، وقدامك صَبَبٌ[1] إلى أسفل الجبل، وزجّك زاح من علو الجبل في ذلك الصبب، أو تعاطيت إن خطوت خطوات ثم هبته، فأردت الوقوف والرجوع، فلم تجد لذلك سبيلاً فانظر إلى حركاتك، ونقل أقدامك، هل هي واقعة بحسب إرادتك ومشيئتك وقدرتك؟ أو بخلاف ذلك، وإنك لتفرق الآن بين من يقطع المسافة إختياراً أو بين من يقطعها سحباً أو زجاً كحركة الارتعاش وحركة تماثلها في يدك واقعة بمشيئتك واختيارك، والكل من الفعلين خلق لله وإنما أحدهما وقع بقدرة الله لا بقدرتك وبمشيئة الله لا بمشيئتك، والآخر وقع بقدرة الله ومشيئته لكن مع محاولة منك وإيثار، فنسب إليك بهذا الوجه، فيقال هذا عملك وفعلك وكسبك، كما يقال هذا لونك وصحتك وشَبَعُكَ ورِيُّكْ وما أشبهه، فصار ما يكتسبه الإنسان خلقاً لله دون الانسان وكسباً للانسان دون الله، والكسب محال وجوده من الله، كما أن الخَلْقَ والايجَادَ محال وجودُهُ من الانسان فاعلم.

---

(١) الصبب في الوادي: انحدار. انظر ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٧٩١.

وسنورد لك إن شاء الله تعالى فصلاً من كلام الفقيه أبي القاسم في هذا المعنى، إن شاء الله تعالى.

ثم أن الفقيه وفّقه الله أشار إلى خبر القدري مع جعفر الصادق رضي الله عنه، في قوله: يا ابن بنت رسول الله ﷺ تعالى الله أن يخلق الفحشاء فأجابه: وجلّ ربنا أن يكون في ملكه ما لا يشاء الخبر الذي قدمناه في صدر الكتاب. فإن قال قائل: فإذا قلتم إن حركة الارتعاش لم تقترن بها قدرة العبد، واقترنت قدرته بالحركة الاختيارية فقد صارت القدرة مؤثرة في مقدورها، وصار العبد شريكاً مع الله في إحداث مَقْدوراتِهِ الاختيارية التي تسمونها كسباً؟

فالجواب إنا نقول: إن تعلق القدرة بالمقدور، كتعلق سائر الصفات به، وإن تعلقها به لا يقتضي إنشاء المقدور وإبداعه، ولا إبداعَ وصف فيه، كما أن العلم يتعلق بالمعلوم ولا يقتضي حدوثه معنًى فيه، وهذه الارادة تتعلق بالمراد، ولا تؤثر في إبداعه ولا إبداع معنًى فيه، وهذه الرؤية تتعلق بالمرىء، فلا تحدثه الرؤية ولا تحدث معنى فيه، ولا تؤثر فيه، وهذا السمع يتعلق بالمسموع ولا يؤثر فيه، ولا في وصف له فيقال هذا معلوم لفلان ومراد له ومرىء له ومسموع، فكذلك يقال هذا مقدور لفلان لتعلق قدرته به لا غير، وهو تعلق اقترانٍ لا تعلق إحداثٍ وهذه أوصاف كلها معقولة كما ترى من غير أن تقتضي إحداث المقدورِ ولا إحداث وصف فيه، غير أن القدرة تعلُّقها بالمقدور مخالفة للعلم والارادة والادراك، كما أن العلم مخالف في تعلقه للادراك والارادة والقدرة، فاعلم ذلك، وقد نجز المقصود ولله المنّة.

فصل

وقد رأيت سلك الله بك طريق هدايته أن أنقل لك فصلاً مقنعاً أملاه الشيخ الفقيه أبو القاسم علي بمكة حرسها الله، عندما سأله سائل عن القدر وما يجب على المكلف إعتقاده فيه؟ فقال رضي الله عنه من الحق المبين، الذي لا ريب فيه، واليقين الذي لا شك يعتريه، إن الله تعالى خالق كل محدث، ومُبْدِع كل مخترع، لما دلّ عليه من الدلائل العقلية والشرعية.

أما العقلية: فجهل المختار منا للفعل بتفاصيل إرادته ومراداته، ولا بد من معرفة المريد بمراده، ليتحقق اختياره له، ولا يصح أن يكون خالقاً بالاختيار على ما شرحناه في مسألة الكسب، وفي غير موضع.

وأما الشرعية: فأولها قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (١).

فأخبر أن تيسير الأعمال إنما هو به. وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٢) فبيّن أن الفجور والتقوى بإلهامه للفاجر والتقي، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ (٣) فأخبر أنه خلقهم

---

(١) ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠: الليل.

(٢) ٧، ٨: الشمس.

(٣) ٢: التغابن.

كفاراً ومؤمنين. كما قال: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ (١) ﴾ كذلك فبين أنه خلق ألوانها كما خلق ذواتها. وقال تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ (٢) ﴾ فأبان أنه خلق اللغات والخطاب، وجعل وجود ذلك دلالة عليه سبحانه، وإنما يدل عليه سبحانه فعله كما أن فعل غيره يدل على فاعله، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٣) ﴾ أي خلقكم وأعمالكم. وقوله ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ (٤) ﴾.

وأما السنة: فأكبر من أن تحصى وأقرب ذلك قوله ﷺ: « إن الله خالق كل صانع وصنعته(٥) » فنص على أنه خالق الصنعة كما أنه خالق الصانع. وقوله عليه السلام: « تم العلم وجف القلم وأمور تقضى في كتاب قد خلا(٦) » فأخبر أن القضاء جارٍ بحسب ما كتب في الكتاب الأول قبل خلق الخلق، وقولهم: ففيما العمل يا رسول الله؟ فقال: « أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة (٧) » وكقوله في

(١) ٢٧, ٢٨: فاطر.

(٢) ٢٢: الروم.

(٣) ٩٦: الصافات.

(٤) ١٦: الرعد.

(٥) رواه البيهقي في الاعتقاد والهداية /٩٣/ باب القول في خلق الأفعال.

(٦) الذي في مسند احمد ١/٢٩٣: « . . . رفعت الاقلام وجفت الصحف »، وفي ١/٣٠٧: « . . . قد جف القلم بما هو كائن »، وفي البخاري كتاب القدر: باب جف القلم على علم الله « . . . جف القلم بما انت لاق ».

(٧) تقدم تخريجه ص/١٠٥.

كيفية الايمان بالقدر لما سئل عن كيفية الايمان به قال: « أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن تعلم أن الله خلق الجنة، وخلق منازل أهلها فيها قبل خلقهم، وخلق النار وخلق منازل أهلها فيها قبل كونهم [1] ».

وقوله ﷺ : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله عز وجل ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله ورزقه وأشقى أم سعيد[2] ». ومثله قول ابن عباس رضي الله عنه في قصة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام: « وأما الغلام فطبع يوم طبع كافراً[3] » لا تغفل عن نكتةِ. النكت مذهب هؤلاء المذبذبين، إنهم يعتقدون أن الله تعالى حكيم، فلا يصدر منه لأحد من خلقه ظلم، فيخرج عن الحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة، ونحن نقول، أنه كيف ما تصرف في خلقه فلا ينسب إليه ظلم، لأنه تصرف في ملكه بما شاء كيف شاء، فالظلم لا يتصور منه.

وفي أمره للخضر عليه السلام بقتل الصبي وهو دون البلوغ جورٌ عظيم، وظلم كبير على مقتضى مذهبهم. وقول علي عليه السلام وقد سئل عن أفعال العباد في خلقها؟ قال: الله خلقها وأنت عملتها، لا تسئل عن هذا أحداً غيري. فنص على خلق الله تعالى للأعمال، وعلى نسبتها إلى العبد بأنها عمله من حيث الاكتساب، وكانت نسبة العمل إلى العبد على حد نسبة اللون الموجود فيه والشبع والري والصحة والسقم، فالموت والحياة له، فيقال لونه وشِبْعُهُ وريُّه وصِحته وسقمه كذلك يقال عمله.

والفرق بين هذه وتلك بالاضافة إلى العبد أن الله خلق في العبد صفة متعلقة بحركاته وسكناته وصلاته واجتهاده واكتسابه، ولم يجعل لتلك

---

(١) روى الترمذي أوله بنحوه في أبواب القدر: باب ما جاء آن الايمان بالقدر خيره وشره.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾.

(٣) رواه الترمذي في السنن كتاب التفسير: باب تفسير سورة الكهف.

الصفة تعلقاً بلونه وحياته وموته وشبعه وريّه، وهي الصفة التي يفرق بها الانسان حساً بين كونه قاطعاً للمسافة سحباً وجذباً، ودفعاً وزجاً، وبين قطعة لها اختياراً وإيثاراً، وبحسب المشيئة إذا تحققت هذه الجملة. فاعلم أن الشرع رتب على العبد مطالبات بأفعاله التي هي اكتسابه كما بيّـناه أمراً وزجراً وندباً، ولم يرتب هذه المطالبات في القسم الآخر، والذي هو ملازم له لا بمحاولة منه، ثم أجرى العادة وطرد السنة أنه متى حاول الفعل الذي هو اكتسابه واختاره اعطاه القدرة وخلق معها الفعل الذي حاوله، ومتى آثر الترك وفعل الضد فعل له ذلك على حسب اختياره العادة جارية، وسنة مطردة، وأجرى التكليف والأمر والنهي على هذا النحو، ولأجله حسن الامتنان بقوله:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[1] ﴾ وأجرى التكليف كذلك، فإذا تقرر هذا. فاعلم إذن أن الذي كلف الله سبحانه العباد تكليفان:

أحدهما: الايمان بالقدر وصفته كما وصفه ﷺ في قوله «وان تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك[2]». وتحقيق هذا الايمان أن يدفع عن نفسك لو وليت ولولا فلا تقول ليتني فعلت كذا، إذ المقدور لا بد كائن، وأمر الله على كل حال نافذ وكذا فلا تقول: لو كان كذا لكان كذا، فلا يكون إلا ما شاء الله وما قضاه وما قدره وأمضاه.

وكذا أيضاً فلا تقول لولا كذا لم يكن كذا لأن أمر الله نافذ، وقضاؤه وقدره ماضيان، هذا كله فيما ليس عندك فيه من الله خبر، فإنه سبحانه قدر الأشياء على جهتين مطلقة ومعلقة:

فالمطلقة: كما أبدع الأشياء لا من شيء، فقال لما شاء منها كن فكان.

والمعلقة: كقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ

---

(١) ٢٨٦: البقرة.

(٢) تقدم تخريجه.

تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[1] ﴾.

وقول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: « يا أبا بكر لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق ابليس[2] » . فأعلمنا الله سبحانه كيفية جريان قدره في تخليق هذا المخلوق وهو تعذيب المشركين من أهل مكة على أي وجه يكون، وأنه لا يكون إلا بشرط، وإن المؤمنين والمؤمنات من بينهم، ومثله ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ[3] ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ[4] ﴾.

وأمثال هذه الآيات، وحسن من الله سبحانه ذلك لعلمه بمجاري أقداره، وكيف جرى تقديره في خلقه، وحسن هذا من رسول الله ﷺ لعلمه ذلك من الله تعالى بالوحي في قوله: « لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس أو لم يخلق إبليس » أو كما قال عليه السلام، واستقام ذلك النبي ﷺ ولم يستقم لغيره، لجهل الغير بعلم الله وتقديره. وهو معنى نهيه عليه السلام عن الخوض في سر القدر؛ وقد فسر النبي ﷺ ذلك في خبر الفارسين والحطّاب اللذين أخذ أحدهما مال الآخر، وقتل الآخر الحطّاب، ووحيه سبحانه إلى نبيه، أن أبا هذا أخذ مال أبي صاحبه فرددن عليه ماله، وأن الحطّاب قتل أبا القاتل فاقدته به، ولا تعارضني في قدري.

---

(١) ٢٥: الفتح.

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات /١٥٧/ الباب الرابع من أبواب قول الله عز وجل ﴿ ونقرُّ في الأرحام ما نشاء ﴾ وكتاب الاعتقاد والهداية /١٠٤/ باب القول في وقوع أفعال العبد بمشيئة الله عز وجل.

(٣) ٣٣: الزخرف.

(٤) ٢٧: الشورى.

وكذلك الخبر الآخر عن أحد عباد بني إسرائيل، عندما رأى بعض العصاة قد ارتكب بعض المعاصي فقال: « والله لا يغفر الله لهذا أبداً » فأوحى الله إلىٰ نبي ذلك الزمان، قل للعابد أنت المتالي علي لا أغفر، قد غفرت له وأحبطت عملك، فاستأنف العمل فلم يكن لأحد الخوض في تعيين قدر الله تعالى إلا بالوحي منه سبحانه. فهذا أحد التكليفين وهو إقامة الايمان بالقدر على حدوده

وأما التكليف الثاني: فالتزام أحكام الشريعة أقداماً وإنكفافاً، فإذا نهانا الشرع عن تناول السمائم والتوجي بالحدائد إنزَجَرنا عن ذلك، ولا نقول لعل الأجل لم يحضُر والسيوف مأمورة، ولا صادّ إلا الله، ولعل الجاري في قدر الله دَوَامُ البقاء، ولا يكون إلا المقدور، فالحال في التكوين هذا، لكن لا بد من إعطاء النهي الشرعي حقه والانكفاف عن المهلكات في العادة، وكذلك في الوقوف عن امتثال الأوامر وترك التوجه إلى الحج مثلاً في أوانه حين تعين التكليف، وترك النهوض إلى الصلوات إعتماداً على أن الله سبحانه إذا قضى الأثر بموضع فلا بد من بلوغه، وإذا قدر النهوض إلى الصلاة فلا بد من وقوعه، فلا بد من النهوض للقيام بحقوق العبادات على ما جرت به العادات، فمن أخل بذلك أخل بواجب العبادة، وهو تكليف يجري على الجوارح والأعضاء.

ومن هذا الجنس قول القائل إن قدّر أني من أهل السعادة فقد حصلت وإن قدّر علي الشقاوة فلا ينفعني العناء الناجز وترك الشهوات التي النفس إليها تائقة فأكون قد جمعت على نفسي بلاءين: حرمانها شهواتها ومحبوباتها في العاجل، وحرمانها بما جرى عليها القضاء في الأجل، فليس الحال على ذلك والقدر نافذ على كل الأحوال والقيام بحقوق الواجبات.

والتكاليف هو وظيفة الحاضر، وهو معنى قولهﷺ لمن قال له: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال: « لا، إعملوا وسددوا وقاربوا فكل ميسّر لما خلق له »[1].

---

(١) في مسلم بدون: «اعملوا وسددوا وقاربوا» في أول كتاب القدر، وأيضاً في ابن ماجه في المقدمة: باب في القدر وأيضاً في البخاري في تفسير سورة ﴿والليل إذا يغشى﴾، وفي كتاب الأدب: باب الرجل ينكت الشيء بيده في الأرض، وفي أول كتاب القدر. أما لفظ «سددوا =

فأمرنا بالعمل للقيام بحقوق التكليف والنهوض بحق امتثال الأوامر الشرعية، والانكفاف عن الزواجر الواردة في الشريعة، فاياك أن يختلط عليك ترك أحد التكليفين، والاخلال بإحدى العبادتين فتقيم حقوق التكليف في الايمان بالقدر إيماناً لا يتعارك معه الشكوك في استدفاع ضراً واستجلاب سراء وندم على ترك الفعل لأجل فوات مطلوبٍ، فالتشكيك في شيء منه قادح في الايمان بالقدر، وإخلال بهذه الوظيفة من التكليف، وإياك أن تقدم على المهالك أو تتعرض للمعاصي أو المعاطب للاستيناس بهذا الايمان، فتُخِلَّ بالقيام بحقوق العبادة في الامتناع مما أوجب الشرع الامتناع منه، فأعط كلا من العبادتين حقها هذا في الاعتقاد والتصديق، وذلك في الاقدام والانزجار، فحينئذ تكون قد نهضت بواجب الايمان والطاعات، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه ﷺ بقوله: « اعملوا وسددوا وقاربوا ». فحثّ على القيام بحقوق التكليف في العمل ثم قال: « فكل ميسر لما خلق له » كأنه يقول وإياك أن تظن أنك لما أمرت بالتشديد والمقارنة إنما أمرت بذلك لتجري عليك المقادير بحسب هواك في استجلاب النفع ودفع الضرر، ولكن تيقّن أن الأمر يجري عليك بحسب إرادة الله سبحانه فيك، وإجرائه قدرَهُ عليك بأن لا تُيَسَّرَ إلا لما خُلقتَ له من خير أو شر، ومعافاة أو بلاء أو إيمان أو كفر، فاعرف هذه الجملة فهي مما يكثر غلط الخائضين في هذا الفن فيه سددك الله وأرشدك، وشرح للايمان صدرك، ويسّرَ لطاعته حركاتك وسكناتك، وغفر لنا ولك ولسائر المسلمين، والحمد لله وصلواته على محمد وآله وسلامه.

قال الشيخ الفقيه أبو القاسم رضي الله عنه، مجموع ما اشتمل عليه هذا القول أن الله تعالى ألزم كل مكلف تكليفين:

أحدهما: إعتقاد، وهو الايمان بجريان القدر بحسب تقدير الله.

والثاني: إقامة العبادات، فلا تخل بالعبادات لاجل الاعتقاد، ولا بالاعتقاد لاقامة العبادات فحينئذ يكون المكلف قد نهض بوظيفة التكليفين، وقام بحقوق العبادتين. هذا آخر كلام الفقيه يرحمه الله.

- **وقاربوا» فهو جزء من حديث رواه أحمد في مسنده ٦/ ١٢٥، وابن ماجة في الزهد: باب** التوقي على العمل، والبخاري في صحيحه كتاب الايمان: باب الدين يسر، والترمذي في سننه، باب القدر باب ما جاء في الشقاء والسعادة.

فصل :

يا من استبعد أن تكون أفعال العباد خلقاً لباريء العباد، إنفرد بخلقها دون خلقه أتُريدُ أن تشاهِدَ خَلَقَ الله لها ضرورة ولا يلحقك شك ولا ارتياب في أن الله خالق أفعال العباد، فقد أرشدك مولاك ان كنت تعقل، فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ[1]﴾ تأمل قراءتك القرآن وأنت تحفظه حفظاً بليغاً، هل إذا قرأت تعرف نظم الكلم بعضها إلى بعض، وضمّ الحروف بعضها إلى بعض حتى إذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم. تقصد الكلمة فتجعله حِذاء الكلمة التي قبلها، والحرف حذاء الحرف الذي قبله، فتبتديء بالباء ثم بالسين ثم بالميم قاصداً إلى ذلك حتى تنتهي إلى آخر ما تقرأه، والله إنك لتعلم من نفسك وكل قاريء مثلك ذهولك عن ترتيب الحروف والكلم شيئاً فشيئاً. والدليل على ذلك وأنت تعلمه أنك تقرأ الآية والسورة وأنت ساهٍ ذاهل لاه، تأمل قولي لك وقراءتك تجد ما قلته لك ونبهتك عليه، لا يعتريك فيه ريب ولا شك، وإن غالطت نفسك وقلت أنا الذي أتى بالكلم وأرَصّفُهَا وبالحروف وأُنَظِّمُهَا فالحسُّ يكذبك، والمشاهدة تُخْجِلُكَ، وهو إذا وقفت في أثناء محفوظاتك وتتحير فلا تعرف ما بعد الموقوف عليه، ولا جرى لسانك بل كأنك لم تحفظه قط، وربما قطعت القراءة وركعت ثم أخذت المصحف فتنظر الكلمة التي غربت عليك فتخرجها ثم تعود إلى قراءتك أو إسترشدت قارئاً إن كان حاضراً فإذا عَرَّفَكَ الآية أخذت تتعجَّب من نفسك، وربما قرأتها مرة أخرى فوقفت عليها ولم يفتح لك بما بعدها كما وقفت أولاً، ثم تجتهد في أن تعرفها وتقول قد ردّها علي فلان يوم كذا، أو يلحقك هذا في أيسر السور المحفوظات ولا وقفت فيه قط لا سيما وقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ[2]﴾ الآية. إن رسول الله ﷺ كان إذا جاءه جبريل يقرئه القرآن يستعجل ﷺ قصداً منه أن يضبطه ولا ينفلت منه فأوحى الله إليه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦

(١) ٢١: الذاريات.

(٢) ١٦: القيامة.

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (1) ﴾.

وقال في موضع آخر ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (2) ﴾.

وهذا يُشبهُ ما قرره الشيخ الفقيه أبو القاسم رحمة الله عليه، في الدليل القاطع على أفعال العباد وفي مسئلة الكسب له، وفي كتاب « الاملاء » وفي غير موضع من كلامه، وبيّنه في حركة اليد الاختيارية دون حركة الارتعاش، فإن القدرية وافقونا في حركة الارتعاش أنها خلق لله تعالى، وخالفوا في حركة الاختيار لأجل إقترانها بقدرة العبد وإرادته فقالوا هذه من خلقنا دون الله تعالى:

قال الفقيه: لا يصح لفاعل شيء أن يكون فاعلاً له على الجملة غير فاعل له على التفصيل، والفاعل لهذه الحركة الاختيارية لا يصح أن يكون خالقاً لها إلا بعد القصد إلى كل جزء فيها، والفاعل المحرك منا ذاهل عن تفاصيل أجزائها غير عارف بكمية أعداد أجزائها ومراداته منها وكيفياتها، ومن أنصف من نفسه أقر بالعجز عن ذلك كله. ولو سئل القدري عن جملتها وهو المحرك ليده، وقيل له: إن كنت خالقاً لها وفاعلاً لها على زعمك، فهل تعلم أجزاء الحركة على التفصيل حتى تعلم كم جوهر قطعته وكم حركة قامت بتلك الأجزاء بهم، ومن أين ابتدأت الحركة بما قطعته من الأحياز، والى أي موضع انتهت ووقفت اليد عنه، وأين جهة إرتفاعها وأين جهة إنخفاضها، وإن كنت أنت خلقتها وأنت فاعلها فحرك يدك حركة مثلها في أعداد أجزائها وأعداد حركاتها القائمة بها، وابتدأ في حيث ابتدأت أولاً، وقف حيث انتهت يدك أولاً، ولا تعلي يدك فوق الجهة التي كانت أولاً، ولا تخفضها عنها، ولا اليد مسرعةً في حركتها، بل على نحو الحركة الأولى. وقيل له: إن كنت تعلم ذلك كله فاذكره صادقاً، فإن أنصف قال: ما أعلم شيئاً من ذلك فيقال: فابحث عن من يعلم ذلك كله على النحو الذي شرحناه، فإن وجدناه فذلك هو الفاعل للحركة الموجد لها دون غيره، ولا تجد ذلك إلا الواحد القهار، لا إله إلا هو الخالق لكل شيء، وهو الواحد القهار، حقاً، وقد نطق به الكتاب العزيز

---

(1) ١٦، ١٧، ١٨: القيامة.

(2) ٦: الأعلى.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ[1] ﴾.

وفي حكاية عن الجنيد[2] رحمة الله عليه، قيل لعبد الله بن سعيد بن كلاب، وهو إمام وقته في علم الأصول رضي الله عنه: أنت تتكلم على كلام كل أحد، وها هنا رجل يقال له الجنيد، فانظر هل تعترض عليه أم لا، فحضر حلقته، فسأل عبد الله الجنيد عن التوحيد؟ فأجابه، فتحير عبد الله في كلامه وحسن جوابه. وقال أعد علي ما قلته فعاد ولكن لا بتلك العبارة، فقال عبد الله: هذا شيء أجدني لم أحفظه فأعد علي به مرة أخرى فأعاد بعبارة أُخرى، فقال عبدالله: ليس يمكنني حفظ ما تقول أمله علي، فقال: إن كنتُ أجريه فأنا أمليه، وقام عبدالله: وقال بفضله، واعترف بعلو شأنه. فانظر وتأمل كلامه إلى آخر ما أسده، وأبلغه، وما أدله على ما قلناه في هذا الفصل عند قراءة القاريء للقرآن على ما قدمنا وبيّناه، وبما أحسن هذا الجواب وما أسده وما أبلغه وما أعلاه في تفهيم مقصودنا، حيث قال: ابن كلاب: ليس يمكنني حفظ ما تقول أمله علي، فقال له الجنيد: إن كنت أجريه فأنا أمليه وما أسرع بديهته وأسد مقالته يتصاغر عنده رويَّة أهل الأصول والبلغاء والفصحاء، ولو أجبت عنها بملء صحيفتين وثلاث وأربع لما بلغت مبلغ هاتين الكلمتين في إفهام من يقول إني خالق لفعلي، والله ولي التوفيق من أراد من خلقه.

---

(١) ١٦: الرعد.

(٢) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزار القواريري، الزاهد المشهور، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق، وكان شيخ وقته، وفريد عصره. وكلامه في الحقيقة مشهور مدون، وتفقه على أبي ثور صاحب الامام الشافعي رضي الله عنهما، وقيل بل كان فقيهاً على مذهب سفيان الثوري رضي الله عنه... توفي سنة سبع وستين ومائتين، وقيل سنة ثمان وتسعين. أنظر وفيات الأعيان ١/ ٣٧٣.

ونختم كتابنا هذا بدعاء نتيمّن به، وهـو دعـاء لبعض العـارفين، مشـاكل لمضمون كتابنا هذا لعل الله يستجيب لنا، ولعـل يدعـو به داع عنـد الوقـوف عليه، ، فيصادف ساعة رأفة ورحمة وإجابة لدعوة أخٍ في الله، حسن إعتقاده فينا، فيرحمنا الله بحسن نيّته، وقبول دعوته، وهذا هو الدعاء:

اللهم إني لم اعصك معاندة لك، ولكنّها مقاديرك التي قدرتها علـي، ولا حجة لي في ذلك، بل الحجة البالغة لك، اللهم إني لم أعمل الحسنات إلا بما اعطيت، ولـم أعمل السيئات إلا بما قضيت فلولا عطاؤك لكنا من الخاسرين، ولولا قضاؤك لكنا من الفائزين فجُد بما أعطيت على ما قضيت، حتى تغفر هذا بهذا يا أرحم الراحمين، اللهم إني أعوذ بك من ضر ينزل بي يضطرني إلى معصيتـك، ويحول بيني وبين أداءفرضك، وأعوذ بك أن أقول الحقّ أريد به سواك، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك، وأعوذ بك أن يكون أحد اسعد منـي بمـا أعطيتني، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة للعالمين، وعلكاً في أفواه الماضغين برحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم أبين رجائي وخوفي حتى لا أرجوك إلا خائفاً، ولا أخافك إلا راجياً، اللهم اجعل ثمرة خوفي منك الاقلاع عن معصيتك، وثمـرة رجائـي فيك الاسراع إلى طاعتك يا أرحم الراحمين، والصلاة على سيد المرسلين محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين إلى يوم الدين.

نجز الكتاب الموسوم «بحز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر» بحمد الله وعونه ومنّـه وأحسانه وفضله وجوده وكرمه، إنه جواد كريم، ودود رحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

أتم الكاتب كتابة هذا الكتاب عام ٦٨٣ هـ.

الفهارس

١ ـ مصادر التحقيق

ـ الأسماء والصفات — البيهقي

دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

ـ أضواء البيان — محمد الأمين الشنقيطي

عالم الكتب ـ بيروت

ـ الاعتقاد والهداية — البيهقي

عالم الكتب ـ بيروت

ـ بغية الوعاة — السيوطي

دار الفكر ـ بيروت

ـ تاج العروس — مرتضى الزبيدي

المطبعة الخيـرية القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ

ـ ترتيب القاموس المحيط — الطاهر الزاوي

دار المعرفة ـ بيروت

ـ التعريفات — الجرجاني

دار الكتاب العربي ـ بيروت

ـ تفسير القرطبي — القرطبي

دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

ـ الجامع الصغير — السيوطي

دار الفكر ـ بيروت

ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة — السيوطي

عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة

ـ خلق أفعال العباد — البخاري
دار المعارف ـ السعودية

ـ الديباج المذهب — ابن فرحون
دار الكتب العلمية ـ بيروت

ـ سنن ابن ماجه — ابن ماجه
دار احياء التراث العربي ـ بيروت

ـ سنن أبي داود — لأبي داود
دار الكتاب العربي ـ بيروت

ـ سنن الترمذي — الترمذي
دار الفكر ـ بيروت

ـ سنن النسائي — النسائي
مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة

سير أعلام النبلاء — الذهبي
مؤسسة الرسالة ـ بيروت

ـ شذرات الذهب — ابن العماد
دار المسيرة ـ بيروت

ـ الشفا — القاضي عياض
مكتبة الفارابي ـ بيروت

ـ صحيح البخاري — البخاري
دار المعرفة ـ بيروت

ـ صحيح مسلم — مسلم
دار المعرفة ـ بيروت

ـ الكامل في التاريخ — ابن الأثير
دار صادر ـ بيروت

ـ الكامل في الضعفاء — ابن عدي
دار الفكر ـ بيروت

- كنز العمال — علاء الدين الهندي
مؤسسة الرسالة - بيروت

- لسان العرب — ابن منظور
دار صادر - بيروت

- لسان الميزان — ابن حجر العسقلاني
مؤسسة الأعلمي - بيروت

- مسند أحمد — أحمد بن حنبل
دار صادر - بيروت

- الملل والنحل — الشهرستاني
دار المعرفة - بيروت

- وفيات الأعيان — ابن خلكان
دار صادر - بيروت

فهرس الموضوعات